كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

التشبيه في شعر الإمام الشافعي وأثره في مدلول المعني

(التشبيه المختص بوجه الشبه نموذجاً)

إعداد

د/ صفاء علي عبد الغني

مدرس البلاغة والنقد في كلية البنات الإسلامية بأسيوط

(العدد الثلاثون – الجزء الثاني أكتوبر ٢٠١١)

كلية اللغة العربية بأسيوط
المجـــلة العلميـــة

التشبيه في شعر الإمام الشافعي وأثره في مدلول المعنـي

(التشبيه المختص بوجه الشبه نموذجاً)

إعداد

د/ صفاء علي عبد الغني

مدرس البلاغة والنقد في كلية البنات الإسلامية بأسيوط

(العدد الثلاثون – الجزء الثاني أكتوبر 2011)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

إن فقه الإمام الشافعي غني عن الوصف والتعريف في علم الفقه ، فقد ذاع صيته ، واعترف بفضله ، وبما أنني من دارسي البلاغة فقد اخترت ديوان الإمام الشافعي للبحث البلاغي ، وقد وقع اختياري على التشبيه في شعر الإمام الشافعي وأثره البلاغي في المدلول ، وبحث أغراضه وأنواعه من خلال العرض والتحليل ،والجميع يعلم إتقان الشافعي للغة ،وغوصه في أسرار بلاغتها وفنونها، ونحن كدارسين للغة أصل اعتمادنا فيها على القرآن الكريم ،والسنة النبوية المطهرة ،ثم الشعر العربي لأنه ديوان العرب ، ومن ثم اخترت التشبيه لما كان التشبيه ميدانًا فسيحًا من ميادين البلاغة وله منزلة سامية- وما ذلك إلا لأنه يدني البعيد ، ويجلي الغامض ، وتكتسي به المعاني بهاء ورفعة ،فيلجأ إليه الأديب لكي يوضح صورة خفية ، ويلجأ إليه الفقيه لكي يوضح مسألة صعب فهمها – ومعنى ذلك أنه قد يكون وسيلة لتوصيل حقيقة أو تقريبها للأذهان ، فقد يقول المعلم لمن يجهل كروية الأرض : الأرض مستديرة كالكرة ،ومثل هذا التشبيه أقرب ما يكون إلى الحقيقة ،فإذا تجاوزت وظيفتة نقل الحقائق أو تقريبها ، إلى إثارة الخيال وتحريك الوجدان فإن له حينئذ شأنًا آخر وهذا ما اختصت به هذه الدراسة ،الأثر البلاغي للتشبيه في المدلول ،وحظه من الأصالة أو التقليد ، وموقعه في السياق ، وبناء عبارته نفسها ، وهذه الاعتبارات يؤثر بعضها في بعض إيجابًا وسلبًا ، لتوضيح القيمة الفنية للتشبيه في شعر الإمام الشافعي وحكمه المنثورة عبر ديوانه،وقد تعددت الموضوعات الشعرية المشبهة لديه، إما للترغيب في

الفضائل،أو للترغيب عن النقائص ،فكان التشبيه بنوعيه المفرد والمركب هو وسيلة التعبير الأدبي،التي تحيل المعنى إلى قيمة تمس خيال المتلقي ولا يصح رجوع الشاعر إلى صنوف ذلك الخيال إلا إذا كان له أساس من مشاعره الخاصة وتجاربه،وهذا ما ألقت الدراسة الضوء عليه،إذ علل الشافعي للغربة ورغبته فيها لطلب العلم بالتشبيه بالسهم يفارق القوس رغبة في إصابة مبتغاه،وبالشمس التي يجب أن تغيب خوفاً من الملل والسآمة، وبالذهب الملقى في التراب فيحتاج إلى مكتشف0 وتصويره للقناعة ، والفقر ، والغدر، والدهر ، والذل، والبخل والبلاء ، والداء ، إلى غير ذلك مما ورد منثوراً في ديوانه من تصوير فضل أبي حنيفة النعمان على الفقهاء كفضل كتاب الزبور على سائر الكتب، ووصف الحسين رضي الله عند مقتله بالمخضب ، وتصوير عدد الحجيج في منى بالموج المتلاطم، وتشبيه الصبر بالجنة،وتشبيه ضريبة الجاه بزكاة المال، بل تعددت الصورة التشبيهية في المعنى الواحد مثل تشبيه سكوته عن الرد على السفهاء بأنه يشبه المفتاح لباب الشر، ثم يشبه سكوته مرة ثانية بالمتجر ومرة ثالثة بالعود يزيده الإحراق طيباً ،ومرة رابعة يشبه الجهل الذي هو ضد الحلم بالثوب المدنس، كما يشبه نفسه في الحلم ببحر الفرات ويشبه السفيه بالكلاب تخوض فيه،كما نجده تارة يشبه العلم بالصيد وأخرى يشبهه بالنور ، و يشبه رواة العلم بالنجوم ، كما نراه يشبه إيداع العلم غير أهله بالباني البناء ثم يهدمه ،كما يشبه العلم الذي لا ينتفع به صاحبه بالنقمة التي هي مثل عبادة الوثن ،إلى غير ذلك مما يجد اللبيب لهذه المعاني من نشوة ، استطاع بالحركة والتجسيم أن يحيل التشبيه إلى صور بديعة جديدة،فلا مهرب منه ، وإن سقط التشبيه منها يتغير المدلول، ولا يصل المراد إلى درجة الوضوح ، وفي بعض المواضع عقدت مقارنة بين تشبيه الإمام وبين من قال في نفس المعنى من

الشعراء، و قد جاء البحث على الصورة الآتية :-

1- تمهيد عن الإمام الشافعي رضي عنه0

2- المبحث الأول: التشبيه المفرد وأثره البلاغي في مدلول المعاني0

3- المبحث الثاني:التشبيه المركب (الصريح - الضمني) وأثره البلاغي في مدلول المعاني0

4- الخاتمة : ورصدت بها نتائج البحث0

التمهيد

الإمام الشافعي :أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن المطلب بن عبد مناف الهاشمي القرشي ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب الشافعية [1] ، وهو قرشي الأب ، والأم ، فأمه هي حفيدة أخت السيدة فاطمة بنت أسد –والدة الإمام علي بن أبي طالب – لهذا كان الشافعي يقول : علي بن أبي طالب عمي ، وابن خالتي 0

ولد الشافعي في غرة سنة150ه الموافق 767م [2] –في العام الذي توفي فيه أبو حنيفة النعمّان فقيه العراق – وقد توفي والد الشافعي وهو لا يتجاوز السنتين ، فأخذته أمّه إلى مكة ، ونشأ فيها يتيمًا ، وفيها بدأت رحلة حياة مليئة بالجهد والجهاد ، وتحصيل العلم ، والسعي من أجله في كل مكان من أركان الأرض0

حفظ القرآن وهو في سن السابعة ، وما أن بلغ الثالثة عشرة حتى أتقن التلاوة والتجويد، وقد أدرك الشافعي مبكرًا ضرورة إتقان اللغة العربية ، والغوص في أسرار بلاغتها ، وآدابها ، وأن هذا لن يتم له طالما ظل في أجواء المدن ، فخرج إلى البادية ، وانضم إلى بني هذيل أفصح القبائل العربية [3] ، وظل يعيش معهم طيلة عشر سنوات خرج بعدها فارسًا في الرّمي، وفارسًا في الفصاحة ، وهذا مكنه فيما بعد من فهم نصوص القرآن ، والحديث النبوي بصورة أعمق وأدقّ0

---

[1] سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي –ت نخبة من الأساتذة – ج10– ص57 مؤسسة الرسالة ط ثالثة – 1405ه – 1985م.

[2] تهذيب الأسماء واللغات – أبو زكريا بن شرف النووي –ج1– ص 55– دار الكتب العلمية بيروت.

[3] الأعلام : خير الدين الزركلي – ج 8–ص80–دار العلم للملايين– ط سادسة –1984م.

تجوّل في كل أرجاء الدولة الإسلامية يناقش جميع الناس ،وكل العلماء والفقهاء ، ورواة الحديث ، فعاش في الحجاز ،وتنقل بين أهم قبائلها : ربيعة ومضر ،ثم رحل إلى العراق لدراسة الفقه الحنفي واجتمع مع تلميذي أبي حنيفة : محمد بن الحسن وأبي يوسف ثم رحل إلى بلاد فارس ، والأناضول ،واليمن ، وبلاد الشام ، ومصر وفيها عكف على فقه الإمام مالك يدققه على ضوء فقه اللّيث بن سعد ،ونقّب عن آثاره،وحصل على الكثير منها مشافهة،عن طريق تلاميذه ، كما اتخذ مجلسًا للإفتاء في مدينة الفسطاط ،وفي جامع عمرو بن العاص ، حيث كان يجلس الإمام اللّيث ، وفي مصر نضجت أفكاره وأعاد صياغة كل مؤلفاته ، كما غاص في تأمل ومناقشة جميع التيارات الفقهية،والفكرية،والعلمية في عصره،مما جعله مؤهلاً لحمل الصفة الموسوعية الشاملة0ورغم أن الشافعي قد أخذ فقه الإمام عليّ بن أبي طالب من تلامذة عبد الله بن عباس ،لكنه مع ذلك تتلمذ على يد الإمام مالك ،وظل ملازماً له طيلة تسع سنوات متواصلة ، وقد حفظ كتابه الموطأ ظهرًا عن قلب، وكان الجدل قائمًا في عصره بين أهل الحديث بزعامة الإمام مالك، وأهل الرأي بزعامة الإمام أبي حنيفة 0

جمع الشافعي علوم عصره ، فاطلع على التراث المصري ،وتراث الحضارات اليونانية والفارسية ، وألمّ بالكيمياء ، والطب ، والحساب ، والفلك ،والفيزياء ، ونبغ في الفقه، والحديث ، واللغة ، والشعر ، والأدب 0

مؤلفاته : للإمام الشافعي رضي الله عنه عدد كبير من المؤلفات التي أعاد صياغتها النهائية في مصر ، مثل : كتاب الرسالة في أصول الفقه ،واختلاف الحديث ،وأحكام القرآن ، والسّنن ، والمسند في الحديث ، وفضائل قريش ، وأدب

القاضي ، ويعتبر كتاب الأمّ في الفقه أهم كتبه حيث جمع فيه قواعد الأصول 0[1]

وقد حظي الشافعي بشهرة عظيمة ، فكثر تلاميذه وأتباعه ،وانتشروا في كل أرجاء الدولة الإسلامية ،وهذا ما دفع تلميذه النجيب الإمام أحمد بن حنبل للقول : ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته منَّة0[2]

قيل في وصف الإمام الشافعي : رجل طويل ، أسمر اللون ، بشوش الوجه ، عذب الحديث ، رخيم الصوت ، وفي نبرته رهبة ،ذكي مبدع ، كثير السهر والقراءة والكتابة يرتدي ثيابًا خشنة نظيفة ، وكان لا يطيب له التأمل والتفكر إلا في الظلام الدامس ، يسير وهو متكئ على عصا غليظة ، ظلت ترافقه في رحلاته الكثيرة 0 فلقد سئل مرة : مالك تكثر من إمساك العصا ولست بضعيف؟ فقال : رضي الله عنه : لأذكر أني مسافر 0 [3]

وفي ليلة الجمعة في 28 رجب سنة204ه الموافق 820م غادر الشافعي دنيا الفناء في طريقه نحو دنيا الخلود ، عن عمر بلغ الرابعة و الخمسين ، ودفن في مصر0 [4]

ومن الأقوال الواردة في الشافعي : قال أحمد بن حنبل : إن الله يقيِّض للناس في رأس كل مائة سنة من يعلمهم السنن ،وينفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب قال : فنظرنا ، فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز ،وفي

---

[1] مناقب الشافعي للبيهقي – ج2 – ص170 – ت أحمد صقر القاهرة 1391ه.

[2] توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس في مناقب الشافعي : ابن حجر العسقلاني –ص57– المطبعة المنيرية 1982م.

[3] مناقب الشافعي للبيهقي – ج 2 – ص170 .

[4] سير أعلام النبلاء : –ج10– ص 047

رأس المئتين الشافعي0 [1] وقال أيضًا عن الشافعي : كان الفقهاء أطباء،والمحدثون صيادلة ، فجاء محمد بن إدريس طبيبًا صيدلانيًا 0

وقال الربيع بن سليمان : كان الشافعي قد جزَّأ الليل ، فثلثه الأول : يكتب، والثاني : يصلي، والثالث ينام0 [2]

وقال أيضاً عنه : لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته لعجبتَ ،ولو أنه أَلَّفَ هذه الكتب على عربيته التي كان يتكلم بها في المناظرة ،لم نقدر على كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه ، غير أنه كان في تأليفه يوضح للعوام0

وقال المبرد : كان الشافعي من أشعر الناس ، وآدِب الناس ،وأعرفهم بالقراءات0

وقال عنه الإمام الذهبي : وإمامنا فبحمد الله ثَبت في الحديث ، حافظ لما وعى ، عديم الغلط ، موصوف بالإتقان ، متين الدّيانة ،فمن نال منه بجهل وهوى ممن علم أنه منافس له فقد ظلم نفسه، ومقتته العلماء ،ولاح لكل حافظ تحامله00 ومن أثنى عليه واعترف بإمامته وإتقانه – وهم أهل العقد والحل قديمًا وحديثًا– فقد أصابوا [3]

ومن أقوال الإمام الشافعي :

- ما ضُحِك من خطأ رجلٍ إلا ثبت صوابه في قلبه0
- أرفع الناس قدرًا من لا يرى قدره ، وأكثرهم فضلًا من لا يرى فضله0
- التواضع يورث المحبة ، والقناعة تورث الراحة0

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : للحافظ أبي نعيم الأصبهاني –ج9–97،98– دار الكتاب العربي0.

[2] سير أعلام النبلاء–ج10– ص35.

[3] سير أعلام النبلاء – ج10– ص094

- إذا تكلمت فيما لا يعنيك ملكتك الكلمة ، ولم تملكها0
- العلم ما نفع ، ليس العلم ما حُفظ0
- طلب العلم أفضل من النافلة0
- الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ،والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط0
- لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفرّوا منه كما يفرون من الأسد0
- العالم يسأل عما يعلم وعما لا يعلم ، فيثبّت ما يعلم ،ويتعلم ما لا يعلم ، والجاهل يغضب من التعلم ، ويأفف من التعليم0
- علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقًا0
- أربعة تزيد في العقل :1- ترك فضول الكلام0 2- السواك0
  3- مجالسة الصالحين0 4- مجالسة العلماء0
- أربعة تقوي البصر :
  1- الجلوس تجاه الكعبة0 2- الكحل عند النوم0
  3- النظر إلى الخضرة 4- تنظيف المجلس0[1]

[1] ينظر آداب الشافعي 287 وحلية الأولياء –ج9- ص 122–وسير أعلام النـــبلاء –ج10- ص 042

المبحث الأول

التشبيه المفرد وأثره البلاغي في مدلول المعاني

وقبل الدخول في هذا المبحث نتطرق إلى تعريف التشبيه عامة :

التشبيه في اللغة:المماثلة يقال: أشبه الشيئ الشيئ [1] : ماثله، والتشبيه التمثيل 0

والتشبيه في اصطلاح البلاغيي: الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى بأداة 0[2]

والتشبيه يعقد صلة يحدثها المنشئ عن طريق الجمع بين المشبه والمشبه به، وليس بالضرورة أن تكون هذه الصلة المشتركة حقيقية ، فقد تكون حادثة ، أو مفترضة ، أو مبتدعة0مما يعني أن المتكلم يتجاوز الدلالات الوضعية للألفاظ، إلى دلالات عقلية أو خيالية،حتى يصل ما يريد من معنى إلى المخاطب،ليعبر بالألفاظ عن حالات لا يمكن للمخاطب أن يتفهمها بدون الصورة حيث تتبدى من خلال ألوانه وصوره المتعددة ، المعنويات المجردة في صورة مادية ملموسة، ولذلك نجد التشبيه من أكثر الألوان البيانية وروداً في أشعار العرب ،وفي القرآن الكريم ،والسنة النبوية الشريفة، لما يوجده من استحداث علاقة بين الدلالة الوضعية وبين صفة ما0وهو في الحقيقة نوع من العقد المبتكر الذي يخرج بالمشبه من عالمه النوعي إلى عالم آخر0ويكشف أسلوب التشبيه عند تأمله عن دلالتين اثنين ،إحداهما المقارنة ،والأخرى الوصف غير المباشر

---

[1] لسان العرب مادة شبه 0

[2] الإيضاح : ص0248- الخطيب القزويني – ت محمد عبد المنعم خفاجي-دار الكتاب اللبناني بيروت ط سادسة – 1985م 1405ه0

0[1]وللتشبيه تقسيمات عدة ترجع للطرفين في البعض الأول ،وترجع للأداة في البعض الثاني ، وترجع للوجه في البعض الثالث ،وهذا التقسيم الأخير هو ما ستعتمد عليه هذه الدراسة0

إن تقسيم التشبيه من حيث الوجه ينقسم إلى : مفرد ومركب ومتعدد 0 ولما كانت تشبيهات الشافعي لم يرد فيها التشبيه المتعدد خلت الدراسة من الحديث عنه0

والتشبيه المفرد هو ما يقوم عليه المبحث الأول0والتشبيه المفرد: ما كان وجه الشبه فيه مفردًا، ويأتي من تشبيه مفرد بمفرد 0

*ومما ورد من تشبيهات الإمام الشافعي المفردة قوله في زكاة الجاه :

وَأَدِّ زَكَاةَ الجَاهِ وَاعلَمْ بِأَنّهَا ∴ كَمِثْلِ زَكَاةِ المَالِ تَمَّ نِصَابُهَا [2]

لننظر كيف وظّف الإمام التشبيه في توضيح قبح سوءات الأمور ،وأنها إذا كانت محرمة على الناس جميعاً فهي أكثر حرمة على أولي الجاه والمناصب الرفيعة،لأنهم القدوة والمثال الظاهر للمقلدين والمتبعين ، ولننظر كيف أوجد صلة بين زكاة المال وضريبة الجاه ،ولذلك فإن على أصحاب الجاه زكاة يجب أداؤها ، ألا وهي الابتعاد في الظاهر عن ساقط الأمور وقبيحها ،مما يؤثر في الصورة العامة لهم ،وزكاة الجاه لها نصاب هو تحقق الجاه والشرف عرفًا،وبلوغ النصاب من العز فيه، كما تجب الزكاة عند بلوغ نصاب المال المقدار المحدد شرعًا ، ووجه الشبه وجوب الاستحقاق في كل وهكذا مكن التشبيه الشافعي من عقد صلة مفترضة وغير حقيقية بين المشبه والمشبه به ، ليعبر بالألفاظ عن حالة لا يمكن

---

[1] التعبير البياني :د/ شفيع السيد – ص18–دار الفكر العربي –ط ثانية 1402ه1982م0

[2] ديوان الإمام الشافعي ش محمد عبد الرحيم – ص 127–إشراف مكتب البحوث والدراسات دار الفكر بيروت.

أن يتفهمها المخاطب بدون الصورة ، وأصبحت المتعة التي منحتها الصورة دليلًا على الجوانب الخفية للفظة، ونحن إنما ننفعل بالصورة التشبيهية لهذه العلاقة المستحدثة بين المشبه والمشبه به ، وهذا المعنى جديد العرض ، وبناء عبارة التشبيه بأسلوب إنشائي (الأمر: أدّ) يؤكد الإلزام ، والتوكيد بإنّ في (واعلم بأنها) بتنزيل المخاطب منزلة المتردد في القبول ، وكأن الإمام قد استشعر هذا التردد ،فاحتاج للتوكيد في إزالته، ثم ختم توكيده للمعنى بالتشبيه لتزداد الفكرة وضوحًا، خاصة إذا قلنا إن التشبيه مبتكر، ويعبر عن إحساس الشاعر الخاص،ويصدر عن رؤيته،وهو مستمد من العقيدة الدينية ،فأحاطت به الأحكام الفقهية المتأثرة بشخصية الفقيه الشاعر،وهو تشبيه قريب لظهور وجه الشبه،والغرض من التشبيه هنا بيان حال ضريبة الجاه وقيودها ،لتبيان وجوبها على أناس بعينهم ، وهو من تشبيه المعنوي في صورة الحسي فالابتعاد عن الفواحش شيئ معنوي،وأداء الزكاة شيئ حسي،واستعمل الشافعي الكاف المضافة لمثل في التشبيه ، ولعله قصد من ذلك تأكيد التشابه والتقارب بين المشبه والمشبه به،إذ كان يكفي أن يقول (كزكاة) بالكاف فقط ،ولكنه أتى بمثل بعد الكاف موضحًا تساوي الطرفين من غير قصد إلى زيادة أو نقصان،وأن زكاة الجاه تساوي زكاة المال في الأهمية الدينية والاجتماعية0وهكذا مكَّن التشبيه من مقارنة قيود السلطة بالزكاة ، و من الوصف غير المباشر لقيمة القدوة بين الناس،ولو فقد التشبيه من المعنى لا نكاد نتصور أي نوع من الزكاة تؤدى، حتى تكون مثيلا لزكاة المال ،فالتشبيه هو المسجل والموضح لأسباب وجوبها وإقرارها، فأثار الجانب الشعوري للإحساس الديني بين يدي المتلقي، كما أقام التشبيه العلاقة بين أمرين من جنسين مختلفين لا يجتمعان في الخيال لولاه ،ليتركنا نستحضر في مخيلتنا كيف يمكن أن تكون تلك الزكاة ،وما أشبهه حينئذ بمن يخبر عن شيئ من

وراء حجاب ،ثم يكشف عنه الحجاب ويقول هاهو ذا فأبصره0

* ومن التشبيهات المفردة في شعر الشافعي:

قَالُواْ سكَتَّ و قَدْ خُوْصِمْتَ قُلْتُ لَهُمْ ∴ إنَّ الجَوَاْبَ لِبَابِ الشَّرِ مِفتَاحُ[1]

تظهر الحكمة دائماً في شعر الشافعي ،ولذلك هو هنا يقرر الاستعانة على الكلام بالصمت ، وعدم الإدلاء بالجواب ،والاستعانة على الاستنباط بالفكر ،وحتى يقرر حقيقة ما قال في ذهن السامع ويثبتها لجأ للتشبيه ،لتقرير قوله ، فشبه الجواب في الرد على الناس في سفاهاتهم الكلامية بمفتاح يهيئ للشر بابه ، ووجه الشبه استجلاب الشيئ بتحقيق سبب وجوده في كل،وهو تشبيه بليغ، حذفت فيه أداة التشبيه ، ليوهم اتحاد الطرفين المشبه(الجواب) والمشبه به(مفتاح الشر)، وعدم تفاضلهما ، فيعلو المشبه إلى مستوى المشبه به ، وهذه هي المبالغة في قوة التشبيه، وهو تشبيه مفرد بمفرد ، الغرض منه : تقرير حال المشبه في نفس السامع بإبرازها فيما هي فيه أظهر وأقوى ،حتى يقنع السامع بالفكرة ،وتثبت في القلب ثبوت اليقين ، ولذلك أكد كلامه بإنَّ ، كما صاغ سياقه بأسلوب الطباق :بين السكوت والجواب ،ليظهر للسامع البون الشاسع بين المتضادين ،وهو من التشبيه القريب المبتذل ،إذ يكثر وينتشر في الألسنة أن تشبه الرد في الخصومة بمفتاح الشر،لكن الشاعر استطاع ببناء العبارة الشعرية أن يصوغه في شكل جديد ، ويسكب فيه نبض الحياة ، بجعل الشر له باب ، وبجعل الباب له مفتاح ،كما يفهم من قوله : قالوا سكت، كناية عن حملهم ودفعهم إياه على الرد إذ كانت نفوسهم تطمح للرد حتى ينفث حقدهم عليه بوقوعه في شرك الخطأ الكلامي، بدلالة قوله : وقد خوصمت ، وهي جملة اعتراضية إطنابية لتوضيح أنه صمت عن جاهل وأحمق،ولذلك نراه يزيد الصورة إيضاحاً بالبيت

[1] ديوان الشافعي –ص 0178

التالي حيث يقول:

أَمَا تَرَى الأُسْدَ تُخْشَى وَهِيَ صَـامِتَةٌ ∴ وَالكَلْبُ يُخْسَى[1] لَعَمْرِي وَهُوَ نَبّاحُ

تزيد الصورة البيانية من فهم هدف الإمام من عدم الـرد ،فعنـد تقريـره السكوت فكأنما بدا ذلك شيئًا غريبًا تصور عدم رده عند المخاصـمة ،وأصـبح لا يمكن تصوره وفهمه إلا بالمثال، لذلك ضرب المثل بالأسد والكلاب،علـى سـبيل التشبيه الضمني،لبيان إمكان المشبه،إذ شبه صمته بصمت الأسود يخشاها الناظر رهبة وإجلالاً وإكباراً ، أما الرد فهو كنباح الكلاب يبعدها الناس إذلالًـا واحتقـارًا ،فيتتابع التشبيه ،وتتابع الأغراض والصور،وتلك براعة تحسب للإمـام ، إذ لـو أُزِيل التشبيه عن موضعه لزالت معه تلك المعاني السامية ،ولم تكن القدرة علـى الإقناع واردة،ولم تنتقل النفس من الشئ الذي تجهله إلى الشئ القـديم المعرفـة ،فإننا إذا تأملنا حال المعنى قبل التشبيه وبعده نرى بونًا شاسعًا ،ومسافة الخلاف متسعة،ألا ترانا نحس الفرق بين أن نقول الكلام يجلب الخصومة، وبـين كونـه مفتاحاً لباب الشر ،فالثاني حصر فتح الباب فيه وذلك أبلغ بجعله المفتاح المتـيح للدخول،كما أن التشبيه الضمني في البيت الثاني أبلغ من قولنا:النـاس تعرفنـي وتخشاني ، وتعرف قيمتي وحالي0فزاد تشبيهه بالأسد عزة السـكوت ، كمـا زاد تشبيه الخصوم بالكلاب ذلةالكلام في هذه الحال،بل زان الإمام الصورة بالجنـاس المصحف بين تخشى و يخسى، لإحداث جرس صوتي مسموع يتناغم مع الصورة المنظورة0

*وكما صور الإمام الجواب بمفتاح الشر أولًا،صور السكوت والصمت عن السفهاء بالمتجر الذي يتكسب منه الإنسان المال ثانيًا،فيزداد ربحه وتجارته ولذلك يثبت عليه ولا يفارقه،في قوله :

---

[1] يخسى : خسا الكلب خسئاً و خسوء : بعد وذل ، فالكلب خاسئ (فاعل بمعنى مفعول).

وَجَـــدْتُ سُـــكُوتِي مَتْجَـــرًا فَلَزِمتُـــهُ ∴ إذَا لَمْ أَجِدْ رِبْحًـــا فَلَسْـــتُ بِخَاسِـــرِ
وَمَاالصَّمْتُ إلاَّ فِي الرِّجَـــالِ مَتَـــاجِرِ ∴ وَتَاجِرُهُ يَعْلُو عَلَى كُـــلِ تَـــاْجِرِ [1]

على أن تراسل هذه الصور في الواقع ليس إلا إشعارًا بعمق الفكرة لـــدى الإمام الشافعي ، مما يوجد نزوعًا قويًا في النفس إلى تبني وجهة نظـــره ، لأنـــه احتكم في ما ذهب إليه إلى حس يميز بين الأشياء عن بينة،إذ أوجد الصـــلة بـــين عالمين مختلفين (السكوت – المتجر) وأشعرنا بها قوية ظاهرة والصورة تمثـــل إعادة صياغة ، أو تشكيل خيالي للواقع ، بما تضيفه وتستحدثه مـــن علاقـــات ، ونحن إنما انفعلنا بهذه الصورة لهذه العلاقة ،ولهذا الرســـم الدقيق،وهـــذه هـــي الصورة الثانية للشافعي في وصف قيمة عدم الجواب على الســـفيه بعـــد أن عـــدَّ الجواب مفتاحًا للشر،وهو القائل : ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح [2]0ونراه بالشـــعر يلجأ للتشبيه مرة ثانية، فيشبه السكوت عن المهاترات الكلامية ،بـــالمتجر الـــذي يتكسب منه صاحبه وفيه رأس مال تجارته ، ووجه الشبه الربح والغنم أو عـــودة النفع في كل، وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس ، ووجـــه الشـــبه عقلـــي، والغرض من التشبيه : بيان حال وقيمة الصمت مع الترغيب فيه وتزيينـــه ،وقـــد أطنب الشافعي بطريق الإيغال [3] في قوله: إذا لم أجد ربحًا فلست بخاسر ، لزيادة تأكيد المعنى من عدم الخسارة في كل أحوال السكوت لوجود أصل المال،كما أكـــد التشبيه بالقصر في البيت التالي (وما الصمت إلا في الرجال متـــاجر) وزاد فـــي تخصيص الوصف بقوله في الرجال بالتعريف ، وجمع الرجال وجمع المتاجر فـــي

---

[1] ديوان الشافعي – ص 0237

[2] آداب الشافعي :لأبي محمد عبد الرحمن الرازي – ص186– مكتبة الخـــانجي القـــاهرة ط 1953م.

[3] الإيغال : ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدون التصريح بها لزيادة المبالغة والتوكيد.

المقابل،وتكرار كلمة التجارة أربع مرات للتأكيد عليها ،وهكذا موقع التشبيه في السياق ،وبناء عبارته نفسها أثَّر في مدلول تزيين الحلم وبيان فضله0

وقد نزع العرب قديما إلى ذم خبيث الكلام واستحقاره،يقول زهير بن أبي سلمى:

وَذِيْ خَطْلٍ فِيْ القَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ ∴ مُصِيْبٌ فَيمَا يُلَمْلِمُ بِهِ فَهُوَ قَائِلُهُ [1]

عَبَّأْتُ لَهُ حِلْمًا وَأَكْرَمْتُ غَيْرَهُ ∴ وَأَعْرَضتُ عَنْهُ وَهُوَ بَادٍ مَقَاْتِلُهُ

فانظر كيف استزاد من الحلم حين جعله يعبأ بطريق الاستعارة التي مكنته من تأليف معنى مركب، دون أن يكون التعبير الدال عليه بنفس الصورة التي تفرضها القواعد النحوية ، فالتعبئة جهد من الفاعل،يقتضي وعاء، والوعاء يستلزم كمية ، والكمية تقتضي حيزًا، كما أن الخيال له أن يستوعب صورة الحلم هذه وكيفيتها وكميتها ، إن منطق الإغفال هنا فقط يستحب، وهي مرحلة إدراك قيمة الكلمة وخطرها، فلا نتحير في إقامة مشابهة بين الاستعداد والتجهيز وبين التعبئة0

وقد نسب إلى أبي الأسود الدؤلي قوله :

فَاْترك مُحَاْوَرَةَ السَّفِيهِ فَإِنّهَا ∴ نَدَمٌ وَغَمٌّ بَعْدَ ذَاكَ وَخِيْمُ

وَإِذَا جَرَيْتَ مَعَ السَّفِيْهِ كَمَاْ جَرَى ∴ فَكِلَاكُمَاْ فِي جَرْيِهِ مَذْمُوْمُ [2]

فإذا كان كل من الشافعي و الدؤلي قد اتفقا على الفكرة، فقد اختلفا في كيفية الطرح، ووجه الدلالة،إذ وجدنا الصورة البيانية عند الشافعي تظهر صفة المعيارية في تفكير الشافعي،عن طريق المقارنة العقلية بين المشبه والمشبه به،وأداء التعبير بطريق غير مباشر،يترك الخيال لتحديد الصورة حسب المتلقي

---

[1] ديوان زهير بن أبي سلمى – ج1– ص29– دار صادر بيروت– بدون تحقيق.

[2] شبكة الفصيح في اللغة العربية :www.alfaseeh.com w.

وعقليته ونفسيته ، بينما الدؤلي باشر أسلوبه بصورة الأمر المراد به النصيحة في قوله (فاترك محاورة السفيه) وتلك المباشرة في الإلقاء تجعل بعض المتلقين في حالة من التردد بين القبول والرفض ،وإن كان قد لجأ إلى التصوير في البيت الثاني ، حين استعار الجري الذي هو للمشي حقيقة للرد السريع في كلام الخصومة،بل صورهما في صورة المتسابقين في حلبة سباق ومباراة ،حين قال: وإذا جريت مع السفيه ،إلا أنه لم يشر في تلك الصورة البيانية إلى الخسارة المادية أو الربح الذي تميل إليه النفس البشرية ،وتقيس به الأشياء دائمًا ، ومن هنا كانت معاني الإمام الشافعي أسرع في الاستجابة للمطلوب،لمخاطبتها الغريزة البشرية في طلب الربح ورفض الخسارة ، فضلا عن إشارة الشافعي إلى كون الحدث ينم عن تجربة شخصية ذاتية حين تكلم عن نفسه،وما يستتبع ذلك من التأثير النفسي وإحداث القبول0

ومما ورد في نفس المعنى وإن اختلفت صورة العرض قول أبي أمامة مولى عبد القيس: [1]

وَإِنَّا وَمَا تُلْقِي لَنَا إِنْ هَجَوْتَنَا ∴ فَكَالبَحْرِ مَهْمَا يُلْقَ فِي البَحْرِ يَغْرَقُ

فقد شبه الشاعر هنا نفسه بالبحر العظيم لا تنال منه سفاهة السفهاء ،ويشبه انكسارها في قرار الحلم بانكسار الأشياء العظام في قرار البحر ،ووجه الشبه يتمثل في هيئة الشئ العظيم الجليل يتلاشى أمامه الحقير التافه،هذا وقد برع الشاعر في التقاط أوجه التشابه،إلا أنه أيضًا ينم معناه عن الغرور الذاتي،

---

[1] زياد بن سليمان أو سليم الأعجم : أبو أمامة العبدي، مولى بني عبد القيس من شعراء الدولة الأموية،جزل الشعر ،كان في لسانه عجمة فلقب بالأعجم ، وكان هجَّاء ،وكان الفرزدق يتحاشى أن يهجو بني عبد القيس خوفاً منه ، توفي نحوسنة100ه (سير أعلام النبلاء ص597).

والفخر،ولعله شيئ تأباه نفس الفقيه التقي في تعبيرات الإمام، بل شكك في حدوث الحدث عندما عبر بلفظة (إن) في قوله : إن هجوتنا،مما يوحي أيضاً بالغرور الذاتي من المتكلم،بل إن المعنى هنا أيضًا لم يشر إلى الفائدة المنتظرة من الحلم كما فعل الإمام ،بل أشار إلى مجرد ابتلاع السفاهة وتحملها،فيمتاز معنى الشافعي بالجمع بين الحلم وأثره في المنظور البعيد0

*وثالث صور الشافعي في الترغيب عن السفاهة قوله :

وَمَاْ التَّجَاهُلُ إِلاَّ ثَوْبُ ذِي دَنَسٍ ∴ وَلَيْسَ يَلْبِسُهُ إِلاَّ سَفِيْهَانِ [1]

ينفر الشافعي في هذا البيت الناظرين من حال السفيه المتعمد للسفه بين الناس، لأن التجاهل : إظهار الجهل وهو غير جاهل،وحتى يعتَّد المتلقي بالمعنى ،قارن بطريق التشبيه السفه الذي هو أمر عقلي،بالثوب المتسخ الذي هو أمر حسي،وهي مقارنة تهدف إلى إبراز الصورة بكل جوانبها، و لذلك كانت صورة ارتداء الثوب بخاصة هي أقرب الصور للذي يتصنع السفه ،فخرج بالمشبه من عالمه النوعي إلى عالم آخر،مستحدثًا علاقة تشكل الواقع الخيالي ،لرسم مشاعر الرفض والتقبيح،ووجه الشبه الازدراء والقبح،وحتى يبالغ الإمام في قبح الصورة زاد في الوصف فقال : وليس يلبسه إلا سفيهان ،أي من جمع من السفاهة سفاهة أخرى ،فاكتمل نصابه من السفاهةعددًا،فأثارت ربط الواقع بالوصف،مما ساهم في تأكيد الغرض من التشبيه وهو التشويه حتى الامتعاض ، وهكذا أثار التشبيه الخيال وحرك وجدان الرفض في نفس المتلقي ،عندما يستحضر تلك الصورة لوسخ الثوب، وفي الوقت نفسه يتنازع ارتداءه سفيهان ،وهي أداء غير مباشر للنصح بالبعد عنه فتساعد نفسيًا على تقبله0كما أن بناء عبارة التشبيه أكمل البناء الدلالي من عدم وصف الثوب نفسه بالدنس بل وصف صاحبه وقد فطن

[1] ديوان الشافعي – ص 0389

الإمام بذلك إلى العيب الذاتي لمن ارتداه،وهذا تفصيل لا يدرك بالبديهة بل لابد فيه من التروي وإنعام النظر،حتى ترى التفاصيل مغمورة فيه0

*ومن معانيه التشبيهية في فضل السكوت ،والبعد عن اللغو الكلامي يقول الشافعي :

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيهُّاالإِنسَانُ ∴ لَا يَلْدَغَنْكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ [1]

كَمْ فِي المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ ∴ كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الأَقْرَانُ

إن اللسان من أعظم الجوارح خطرًا على صاحبه،ولما له من أثر نبه عليه الإمام وحتى يستجيب المتلقي للنصيحة،كانت صورة التشبيه وسيلة توضيح معالم الصورة وكشف أبعادها،بإثارة الإحساس المطلوب بشكل أعمق وأشد تأثيرًا ،بتصيد وجه للشبه بين اللسان والثعبان،وهو يمد المخاطب بمظاهر طبيعية مادية من حوله ،ومن ثم فعالم المادة أمس بالنفس رحمًا ، وأقدم لها صحبة ،و آكد عندها حرمة، فكان تشبيه لسان الإنسان في مضاره وأذاه بالثعبان القاتل ،ووجه الشبه الأذى ، والغرض منه بيان مقدار حال اللسان في أذيته وتقبيح وتشويه مردوده ،ببيان مقدار حاله في القوة والأثر،وإذا أزلنا التشبيه من موضعه وقلنا: اللسان يؤذي،لم تتراءى للخيال تلك الصورة للثعبان المرعب شكلًا وأثرًا،ومحنة النفس تبتعد هرولة منه،وما تبثته الصورة من تموج متفرق السبل،ولذا كان أثر التشبيه في إحياء معاني الرعب والرهبة، وتحويلها إلى حس مشاهد،ولذاأتبع التشبيه بالخطاب العقلي(المذهب الكلامي) لإقامة الحجة على ما أورد،وزاد من قيمة وأثر التشبيه بناء عبارته بأسلوب إنشائي (الأمر للتأديب،والنداء للتنبيه إلى أمر ذي بال،والنهي للتحذير) ثم تقديم فعل اللدغ على الفاعل ،وفصل جملة إنه ثعبان، للتأكيد والتحقيق(كمال الاتصال)0وقد يكون الشافعي تأثر في معناه بقول

[1] ديوان الشافعي – ص0364

الرسول صلى الله عليه وسلم (وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم) [1] فشبه الرسول اللسان بآلة الحصاد تأخذ كل ما في طريقها نافعاً كان أو غير نافع0ومافي ذلك من إشارة إلى العمل الذي هو الغرس ،والحصاد يكون نتاجه0

وقد قال أحد الشعراء في هذا المعنى :

يَمُوْتُ الفَتَى مِنْ عَثْرَةِ لِسَانِهِ ∴ وَلَيْسَ يَمُوْتُ المرءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

وهنا الشاعر استعان بالاستعارة لبيان أثر اللسان على الإنسان،بأن شبه الكلمة المرفوضة حال خروجها منه وتسببها بمردودها في وروده المهالك ،بالدابة المتعثرة إذ يترتب على تعثرها سقوط راكبها عن ظهرها،ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو العثرة وإسنادها للسان قرينة المكنية ،بل إن الشاعر عقد مقارنة واقعية منطقية يباشرها العقل البشري بين عثرة اللسان وعثرة القدم،وتكَّون تهيئة خطابية حتى يستقبل المتلقي المعنى أحسن استقبال0 وفي هذا المعنى يقول يعقوب الحمدوني:

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامُ ∴ وَلَا يَلْتَأَمُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

وهنا أيضاً ربط الشاعر المشاهدات الحسية بالتأثيرات العقلية، وقارن بين أثرين :أثر آلة القتال والموت ،وأثر الكلمة السيئة في نفس المخاطب بها،ولجأ إلى الاستعارة (الجرح للأثر والنتيجة) على سبيل الاستعارة التبعية ،وهكذا اتفق الثلاثة في المحاورات العقلية ، واختلفوا في طريقة العرض والصورة ،إذ اختار كل واحد منهم جانباً خاصاً برؤيته ومنظوره،جانب السم القاتل وجانب العثرة المميتة وجانب الأثر الغائر، جانبان منهما يخصان الجسم والثالث يخص النفس،

---

[1] سنن ابن ماجه –كتاب الفتن باب كف اللسان في الفتنة– ج2– ص1314– ت محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي – بيروت.

فأحاطوا بجوانب المعنى مجتمعين،إذ اكتملت رؤاهم 0

*وتتابع تشبيهات الشافعي المفردة، ومنها قوله :

لَمَّـــا بَلَـــوْتُ أَخِلَـــاَّ ئِـــي وَجَـــدْتُهُمُ ∴ كَالْدَهْرِ فِي الغَدْرِ لَمْ يُبْقُوا عَلَى أَحَدِ

إِنْ غِبْتُ عَنْهُمْ فَشَـــرُّالنَّاسِ يَشْـــتُمُنِي ∴ وَإِنْ مَرِضْتُ فَخَيْرُ النَّاسِ لَمْ يَعُدِ [1]

إن الشافعي بحكمته يعطينا خبرته في الحياة ، ويخبرنا بخصائص بشرية ربما نغفل عنها مع مشاهداتنا لها ،هاهو يصف حاله مع الناس المقـــربين إليـــه ،ويلجأ للتشبيه في بيان الصورة واضحة جلية،إذ شبه حال الناس معه عند البلاء بالشدائد بحال الدهر، ووجه الشبه الغدر والتقلب والتلون، وهو تشـــبيه مفصـــل لذكر وجه الشبه فيه صراحة ، وقد احترس بلفظة الغدر خوفًا من مظنة المتلقـــي أنهم كالدهر في الصمود أو البقاء،ولنا أن نتخيل المعنى بدون التشـــبيه ،لنـــدرك المدى الذي يصل إليه،ولندرك أثر التشبيه الإيجابي في المعنى، وأنه كان أدعـــى للفكر،وأبلغ في التنبيه والزجر،لأنه استنتاج محصلة مشاهدة واقعية ،والعقل دائما يقر بالواقع العملي للتجربة،كما كان التشبيه يقتضي ضربًا مـــن الاشـــتراك فـــي الصفة ،والقدرة على رؤية الشيئ بوضوح ،ويعد من التشبيه القريب لكن الشرط جعله غريباً فهم كالدهر في وقت البلاء0وهو من تشبيه المعقول بالمعقول،والوجه عقلي،والغرض من التشبيه بيان الحال مع التشويه والذم ليرغب عن المشـــبه أو للتنبيه إلى غفلة البعض ،ويدعو إلى الفراسة في التعامل البشري، ولـــذلك يضـــع قواعد عملية تساعد معرفة المعدن البشري بقوله: لما بلوت أخلائي ،فهو اختبـــار للنفوس حتى تظهر ما تبطن،وهو يتحصل ليس لمجـــرد الصـــاحب بـــل للخليـــل القريب،ولذلك يوضح كيفية الابتلاء،وكيفية معرفة النتيجـــة فـــي البيـــت الثـــاني مباشرة،مما يشير إلى معرفة الإمام بقواعد علم النفس0

[1] ديوان الشافعي – ص 0192

*وتتواصل حكم الشافعي في وصف أحوال بعض البشر وطلب الفراسة من البعض الآخر بطريق التشبيه المفرد فيقول :

وَدَعِ الَّذِينَ إِذَاْ أَتَوْكَ تَنَسّكُوا ∴ وَ إِذَاْخَلَوْا فَهُمُ ذِئَابُ خِرافِ [1]

يخاطب الشافعي هنا الفطناء من الناس حتى لا يغتروا بالظواهر الحياتية، وتلونها (الرياء) وقد حقق عنصري الائتلاف والاختلاف في الصورة ،في أداء قيمة الفراسة فنراه يخاطب نفسه عن طريق التجريد [2] ثم يوفق ويجانس بين طرفين متباعدين في الجنس:البشر والذئاب ،بطريق التشبيه يجمع بينهما لدلالته على عمق الملاحظة ولمح الخيال،واجتلابها من ظواهر الحياة العربية لاستكشاف وجه التشابه،حين يتشبه فريق من الناس بالمتنسكين عند اللقاء بك وهي استعارة لصورة المرائين،ثم يشبههم عند الاختلاء عنك واغتيابك ينهشون لحمك بألسنتهم مثل ذئاب الخراف، تنهش لحم الأغنام بأنيابها،أليس النيل من العرض كتمزيق اللحم؟ وقد قيد المشبه به بلفظة الخراف بلوغًا إلى تمام المماثلة بين الطرفين،تحقيقًا للتشبيه مما يدل على ملاحظة أدق لمظاهر الاشتراك بين الطرفين، لكون الخراف آمنة مطمئنة فيباغتها الذئب فجأة، كما أن من يغتابه الناس يكون آمنًا لا يتوقع ما يتم دون علمه،كما أن اللفظة للإيحاء بكثرة الغدر مما يشير إلى أنه ليس وحده من يتعرض لذلك، بل كل من اتفق معه في الصفة اتفق معه في المصير و من يعيد النظر يدرك التفاصيل،ووجه الشبه الخيانة ، والغرض من التشبيه بيان الحال وتقبيح حال الغيبة والتشبيه تشبيه بليغ لحذف أداة التشبيه ،والبليغ هنا من المبالغة بمعنى الحسن واللطف لأن المشبه يصير

---

[1] ديوان الشافعي – ص0288

[2] التجريد : أن ينتزع المتكلم من أمر ذي صفة أو أكثر ، أمراً آخر أو أكثر مثله في تلك الصفة ، لإفادة المبالغة ، وذلك لادعاء كمال تلك الصفة في ذلك الأمر.

فيه عين المشبه به دون تفاوت ، مما يخلع على التشبيه صفة الاتحاد ، إذ لا ترجيح لبعض الأوصاف على بعض في الإلحاق [1] 0 ومما زان الصورة البيانية تلك المقابلة المعنوية بين إتيان المتنسكين ، واختلاء المتربصين لبيان البون الشاسع بين الموقفين0وبنية التقابل عملت على مستوى تحقيق الناتج الدلالي ، وهو المستهدف الأول ، فإنها تعمل في الوقت نفسه على خلق نوع من التلاؤم يتيح لإيقاع النص الذي ترد فيه أن يتأكد ويتدعم بتناسق حركة المعنى وانتظامه[2]

وهكذا لو أزيل التشبيه من موضعه لما كان للمعنى من مثل هذا الأثر الذي وقع في نفوسنا عن الغدر والخيانة،ولما استهجن المتلقي غيبة الآخرين عندما يتخيل تلك الصورة في عمق منطقه0 وقد تعاطى أبو الحسن التهامي هذا المعنى بصورة مختلفة إذ يقول :

ثَوْبُ الرِّيَاءِ يَشُفُّ عَمَّا تَحْتَهُ ∴ فَإِذَا التَّحَفْتَ بِهِ فَإِنَّكَ عَارِي [3]

فالكلام على تشبيه الرياء بالثوب ، وقد أضيف المشبه به إلى المشبه [4] وقد عبر كل من الشاعرين عن وجهة نظره،إلا أن البيت الأخير يفضح المرائي بوجه خاص أما الشافعي فقد جمع صورة الرياء وصورة الاغتياب فجمع بين معنيين في صورة واحدة بل أكملت المقابلة عنده زوايا الصورة ،فكان النفاق في أبشع صوره ،التمسح بالدين،وصورة التحول إلى ذئاب،وما في ذلك من بشاعة

---

(1) التشبيه البليغ : د/ عبد العظيم المطعني – ص 728– ط دار الأنصار – 1980م.

(2) ينظر : البديع دراسة في البنية والدلالة –د عزة جدوع – ص40– مكتبة الرشد– ط أولى 1429ه.

(3) ديوان أبي الحسن التهامي – ت/ علي نجيب عطوي– دار الهلال – 1986م.

(4) التعبير البياني – ص024

وتنفير،واتفقت صياغة المعنى عند كلاهما في صورة الشرط وجوابه،واستعملا (إذا) فيه لتأكيد الوقوع وصاغا النصيحة في صورة بيانية توضيحية للربط بين الواقع والاعتقاد، واستقيا التشبيه مما هو شائع معروف الذئاب والثياب، ثم سكباه في شكل جديد ونبض جديد،وربما التهامي استقاه من قول الرسول صلى الله عليه وسلم (المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور) [1]

*وتتواصل تشبيهات الشافعي في وصف أحوال التعامل الإنساني كما في قوله :

النَّاسُ دَاءٌ وَدَاءُ النَّاسِ قُرْبُهُمُ ∴ وَفِي اعْتِزَالِهِمُ قَطْعُ المَوَدَّاتِ [2]

يتعامل الإمام بطبيعة فكره،ويشير إلى الوسطية في التعامل البشري،بعدم الملازمة وعدم المفارقة وحتى يؤكدها لجأ للتشبيه ،إذ يثبت ابتداء التأذي المتصل بقرب الناس وكذلك التأذي المتصل بالبعد عنهم،إذ في قربهم يعتريه منهم الوجع والألم،وفي بعدهم يصيبه منهم قطع المودة والرحم فشبه الناس بالمرض ليحدث ذلك التفاعل وحتى تدرك أثر القرب الزائد منهم ،وأثر البعد الزائد عنهم ، وكأنه يشير إلى كون المرض يستفاد منه بالحسنات ،كما يستفاد من صلات الرحم بها أيضًا،كما أنه متحقق الوقوع ،حتى يدرك الإنسان قيمة الصحة،ووجه الشبه الملازمة وعدم المفارقة،وهو تشبيه بليغ،حذفت منه الأداة ليوهم اتحاد الطرفين ، وعدم تفاضلهما ، وذكرها يضعف إلحاق المشبه بالمشبه به،والغرض بيان مقدار التعامل البشري،وهو من تشبيه المحسوس بالمعقول،فالمرض لا يُرى ولا يمس،لكن كان التشبيه بتقدير الإحساس فقدر المعقول كأنه محسوس،لإثارة

---

(1) صحيح البخاري محمد بن إسماعيل:أخرجه في الأدب المفرد : ج5 – ص2001–ط ثالثة – ت/مصطفى ديب جامعة دمشق 1407ه 1987م – اليمامة – دار بن كثير– بيروت.

(2) الديوان : ص0168

الوجدان، فهو يتخيل في المعقول صفة محسوسة أولًا ، وأن هذه الصفة أقوى في المعقول منها في المحسوس ثانيًا [1]0 و لمن لا يعرف الاعتبارات الدقيقة المتشابكة،وحتى يحددها للمتلقي كان التشبيه الوسيلة المثلى للتحديد والوصف، وإذا أردنا معرفة قيمة التشبيه في التعبير فلنفترض سقوطه منه،ولنتخيل كيف يكون المعنى حينئذ، لندرك بعدها أثر التشبيه في المعنى المراد0إذ يتضح الفرق بين إدراك الشيئ على الجملة وإدراكه على التفصيل حين نقول مثلًا يؤذينا الناس،فنحن حينئذ نصف أذاهم مجملًا لا يحتاج إدراكه إلى فكر،فإذا قلنا الناس داء وداء الناس قربهم كان ذلك ضربًا من تفصيل الوصف يحتاج إلى التأمل والأناة0

*ومن المعاني التي صاغ فيها الشافعي تشبيهاته معنى الزهد في الناس بقوله :

كُنْ سَائِرًا فِي ذَا الزَّمَانِ بِسَيْرِه ∴ وَعَنِ الورَى كُنْ رَاهِبًا فِي دَيْرِه [2]

يشبه وجوب التخلي عن الدنيا وانقطاع الأمل في الناس، بالراهب في صومعته ،يتخلى عن أشغال الدنيا وملاذها راغبًا عنها معتزلًا أهلها إلا في حالات الاستنصاح،ووجه الشبه الاستغناء والابتعاد،وهو من تشبيه الأمر العقلي وهو اعتزال الناس ،بالأمر الحسي (الراهب في محراب تعبده) والوجه عقلي والغرض من التشبيه تقرير حال المشبه بإبرازه فيما هو أظهر وأقوى لدى العقل البشري حتى يقتنع بالفكرة سريعًا، عند استعراض ماء الصورة وجوها،وتقسيم أجزائها، وهو تشبيه استمده الشافعي من البيئة المصرية ،التي عاشها فترة حياته في

---

[1] البلاغة فنونها وأفنانها :علم البيان والبديع–ص36 د/فضل حسن –دار الفرقان –عمان–ط أولى– 1407ه01987

[2] الديوان – ص 0234

مصر، بل لعله صور شعور التقي الفقيه،لأنه يمس صدق حاله ،وأصالته الدينية، كما التزم فيه قرب المفهوم إذ يكثر في الاستعمال تشبيه المستغني عن الدنيا بالراهب،الزاهد في كل ما يتعلق بأمر الدنيا، فكانت صورة الابتعاد رغبة في العبادة ونيل القرب من الله،وغنى النفس عن كل ما عدا الله، وفي ذلك تمام التماثل بين الطرفين حيث صرف همه إلى رصد المشابه الحسية بينهما بحيث لا يكون ثمة تعارض أو تباين في المشاعر التي يثيرها كلاهما في النفس،ويؤكد ذلك بقوله: في ديره ،أي عالمه الخاص وسط هذا العالم الدنيوي الذي تعتريه العديد من الملذات والشهوات0

وفي التحذير من الدنيا نرى أمير الشعراء أحمد شوقي يقول :

أَخَاالـــدُنْيَا أَرَى دُنْيَـــاكَ أَفْعَـــى ∴ تُبَـــدِلُ كُـــلَ أَوَنَـــةٍ إِهَابَـــا [1]

وَإِنَّ الـــرُّقْطَ أَيْقَـــظَ هَاجِعَـــاتٍ ∴ وأَتْرَعَ [2] فِي ظِلَـــالِ السِّـــلم نَابَـــا

فَمَـــنْ يَغتَـــرْ بِالـــدُنْيَا فَـــإِنيّ ∴ لبَسِـــتُ بُهَـــا فأَبْلَيَـــتُ الثيِّابَـــا [3]

وعند الوقوف على بعض الجوانب البلاغية في الأبيات ، نجد شوقي قصد التخويف والإرهاب من الاقتراب من الدنيا،حين شبهها بالحية المتلونة الخادعة الهيئة،وكان تشبيهه تمثيليًا تعددت الصورة داخل التشبيه مما أكمل جزئياتها ، وأحاطت بجوانب تصميم الصورة ،استطاع بالحركة والتجسيم من سكب نبض اعتقاده في قالب تصويري ،يشعرك أنك أمام صورة حقيقية ، تتداعي فيها

---

(1) إهاب :الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل أن يدبغ ،والجمع :أهب وآهبة (المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية مصر – ص31– ط رابعة 1426ه2005م).

(2) أترع : أسرع.

(3) الشوقيات : أحمد شوقي–ج1– ص102– تعليق د/ يحي شامي – دار الفكر العربي– بيروت –ط أولى 1996م.

اللقطات والصور،مما يشير إليه من إطناب في التوضيح،واختلفت نظرته للدنيا عما أورده الشافعي،لأنه ينصح هنا المرتكن للدنيا المستأمن لها،فيحذره من غدرها خوفًا منها تحذير التجربة العملية ،حين تكلم عن بلاء ثيابه بها كناية عن كبر العمر،واستخلاص التجربة بعد نضج فكري،مما يستدعي سريع الإنصات والاستجابة،بل بناء عباراته أضاف للتكوين المعنوي ،بإضافة الدنيا للمنادى المفيدة للاختصاص الحواري،ثم إحساسه التردد من المنادى فأسرع للتوكيد، بل أفهم مدلول البناء سرعة انقضاء الحياة ،والتي أوحت بها الفاء،إذ يتبع الشباب والزينة الهرم والبلى0أما الشافعي فقد كان معناه من منظور الاستغناء الذاتي قبل التجربة ،والتأمين الإنساني لحدود التعامل0

وفي الدنيا أيضًا يقول الحريري في المقامة الثالثة والعشرين :

يَا خَاطِبَ الدُّنيَاالدَّنِيَةَ إِنَّهَا ∴ شَرَكُ الرَّدَى وَقَرَارَةالأَكْدَارِ[1]

دَارٌمَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا ∴ أَبْكَتْ غَداً بُعْداً لَهَا مِنْ دَارِ

فشبه الحريري الدنيا بشرك الهلاك ومقر الأوساخ،فالتمس لتقبيح الدنيا صورة حسية يدرك من خلالها خداعها للعين،وهو تصوير وتوزيع لأجزائها،ثم إضافة الشرك للردى،واختيار الردى دون الهلاك أو الموت،بل إنه عددَّ المشبه به، بما يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع،بل إنه جعل الطالب لها كالخاطب للعروس،دلالة على شهوة الرغبة ،كما قابل بين أحوال الدنيا لإظهار تباينها بين ليلة وضحاها،مما أنشأ نوعًا من التلاؤم يدعم حركة المعنى وانتظامها0كما اتفق مع شوقي على تلون أحوالها،لكن صورة الأفعى لدى شوقي كانت أكثر إيضاحًا وتأثيرًا انبعث من الروع الذي بثته الصورة،فهي في تثبيت المعنى أقوى وأشد0وهكذا اتفق الشافعي وشوقي والحريري في الرؤية ،واختلفوا

---

[1] مقامات الحريري – ص82– ت/ يوسف بقاعي – دار الكتب اللبنانية – ط أولى– بيروت.

في الطرح والعرض من ما سجل سجالًا فنيًا يقف الأدب عنده0

*ومن تشبيهات الشافعي المفردة تشبيه سرور أيامه بالعيد في قوله :

مِحَنُ الزَّمَانِ كَثِيرةٌ لَا تَنْقَضِي ∴ وَ سُرُوْرُه يَأْتِيْكَ كَالْأَعْيَادِ [1]

مَلَكَ الأَكَابِرَ فَاسْتَرَقَّ رِقَابَهُمْ ∴ وتَرَاهُ رِقًّا فِي يَدِ الأَوْغَادِ

يتحدث الإمام عن صروف الزمان وهمومه، ويصفها بالكثرة،إذا قيست بأيام السرور، ويحترس من أن يتوهم المتلقي أنها كثيرة العدد ثم تزول ،فقال: لا تنقضي، في إشارة إلى الملازمة ، ولما أراد أن يبين الموازنة بينهما لم يجد سوى التشبيه وسيلة ، فشبه عدد سرور أيامه بالعيد ،ووجه الشبه قلة العدد ولهفة الانتظار ، ليدلل على أنها معدودة على أصابع اليد الواحدة ، والغرض من التشبيه بيان مقدار حاله في قوة المحن عليه وضعف السرور عنده، إذ بالتشبيه ظهر أن فرحة عمره قليلة في منظور الأعداد،وإحصاء السنوات،وبذلك كان برهان المعنى أوقع ،وما كان ليصل لنا عموم حزن الإمام وأثره في نفسيته لولا هذا التشبيه الذي أبان المكنون،ووصف المخفي وقدَّر غير المحصور في عداد المعدود ، وهو تشبيه قريب مبتذل ،لأن وجه الشبه في المشبه به مما يسرع حضوره إلى الخاطر عند أول النظر إلى المشبه [2]0 يتناوله العامة والخاصة بصيغة أو بأخرى ، ومنه قول بعضهم يمدح وجه أحد الملوك : (ولا أشبه وجه مولاي إلا بالعيد المقبل)0 ويواصل الشافعي تشبيهاته عن الزمان بتشبيه وليد البيئة العربية القديمة بظروفها وطبيعتها ،حتى يؤكد كثرة المحن في عدد أيامه،حين يتبع هذا التشبيه بتشبيه آخر ،حتى تتم الصورة لدى القارئ فيشبه الزمان في يد الأحمق بالعبد، ووجه الشبه وجوب الطاعة للمراد والمطلوب ،

---

[1] ديوان الشافعي – ص 0204

[2] البلاغة فنونها وأفنانها : علم البيان والبديع.

والغرض منه تقرير حال الزمن في ذهن السامع ،بإبرازه فيما هو أقوى فيه ،إنه الطاعة والامتثال لمراد الأوغاد في حين أنه يستعبد عظماء الناس فيذلهم ، (وهذه استعارة) فجمع في أسلوبه بين التشبيه والاستعارة في بيت واحد ،ويقال الاستعارة أبلغ بسبب دعوى اتحاد الطرفين فيها0 وقد أظهر المفارقة العجيبة في إكرامه الأذلاء،و إهانته الأعزاء ،عن طريق المقابلة في المعاني ، ولم يصح رجوع الشاعر إلى صنوف ذلك الخيال إلا إذا كان له أساس من مشاعره الخاصة وتجاربه،إذ لا معنى لأن يشبه المرء بما لم يره ،ولا أن يصور شعوره بما لا علم له به،مما يعكس تأثر الشافعي كثيرًا بالفكرة المطروحة0

وفي هذا المعني يقول ابن الرومي :

دَهْرٌعَلَىْ قَدْرُ الوَضِيْعِ بِهِ ∴ وَغَدَا الشَّرِيفُ يحَطُّهُ شَرَفُهُ

كَالبَحْرِ يَرْسُبُ مِنْهُ لُؤْلُؤُه ∴ سَفْلاً وتَطْفُو فَوْقَهُ جِيْفُهْ [1]

هذا وإن اختلفت الصورة هنا، فالشاعر هنا اتفق مع الشافعي في المقابلات الوصفية في الحديث عن ارتفاع شأن الوضيع ،وانخفاض شأن الشريف، لكن ابن الرومي اختار لتشبيهه صورة البحر يختفي في قاعه الثمين الغالي : اللؤلؤ، ويظهر على سطحه الرخيص البالي:الجيف،وهو تشبيه تمثيلي ،تتوافر فيه طرافة تتمثل في الجمع بين أشياء أبعد ما تكون عن التقارب والائتلاف ،إذ تتعانق فيه المعاني الذهنية_الشرف والوضاعة- مع الأشياء المجسمة_البحر واللؤلؤ، والبحروالجيف- وكلا الأمرين من واد بعيد عن الآخر ، وضاعف من جماله بناء العبارة نفسها ، إذ قال يرسب منه،ولم يقل يرسب فيه وما دل عليه ذلك من التجريد بمن ،كما قال سفلًا للإيغال في الوصف لتحقيق التشبيه،لما يدل عليه من ملاحظة أدق لمظاهر الاشتراك بين الطرفين،واقتراب

---

[1] ديوان ابن الرومي : تحقيق د/حسين نصار- دار الكتب المصرية – القاهرة -1973م.

أشد من كمال التطابق بينهما،فضلًا عن المقابلات المشيرة لتباين الحال ،لأن الضد بالضد يظهر، فاختار كل منهما زاوية خاصة من رؤيته،تبرز اختلال الصورة، اختار الشافعي الرق ، فأصاب في إيصال معنى التمكن،واختار ابن الرومي البحر دلالة على رحابة الصدر، فبرز المعنى الواحد بالصورة التي ابتدعتها قريحة الشاعر ،وبالطريقة التي ارتأها0

*ومن تشبيهات الشافعي المفردة والتي تتواصل فيها حكمه قوله :

هِمَّتِي هِمَّةُ الملُوكِ وَنَفْسِي ∴ نَفْسُ حُرٍّ تَرَى المذَلَّةَ كُفْرَاً [1]

يفخر الشافعي بعفته وعزيمته،وحتى يشعرنا إحساسه الداخلي كان التشبيه الطريق الأمثل لإيصاله،بإيجاد علاقة بين طرفين ألمحت للعقل ائتلافهما،وإحداث مشابهة تستكشف منها تشكيل الصورة على نحو خاص،و شيئ مستحدث من عالم الفكر،وخاصة لأن المشبه والمشبه به أمر عقلي، في صورتي التشبيه (همتة وهمة الملوك – الذل والكفر) ،يشبه الإمام قوة إرادته وثبات عزيمته ورسوخ همته بعزيمة الملوك،ووجه الشبه الإنفاذ والتحقيق ،ثم يكمل بيان الصورة ببيان كنه نفسه العفيفة وأنها ترى الذل كالكفر ،في الامتناع والرفض ،وقد اختلف مراده من التشبيه في كليهما ، فالأول الغرض منه بيان مقدار علو همته مع تزيينها،والثاني الغرض منه بيان مقدار قبح الذل عنده ومقدار استكراهه، وهو تشبيه بليغ لبيان عدم تفاوت المشبه والمشبه به،إذ لا ترجيح لبعض الأوصاف على بعض،وتأثر فيه الشافعي بنفس المؤمن الغنية التقية،ويؤكد ذلك بناء عبارة التشبيه من إضافة الهمة لضميره ومن حذف أداة التشبيه،ثم تعقيب الكلام بالحديث عن النفس0

وفي هذا المعنى يقول أبو تمام يرثي محمداً بن حميد الطوسي :

---

[1] ديوان الشافعي – ص0223

وَ نَفْسٌ تَعَافُ العَارَ حَتَى كَأَنَّهُ ∴ هُوَالكُفْرُ يَومُ الرَّوْعِ أو دُوْنَهُ الكُفْرُ (1)

فقد اتفقا في جانب من الصورة،واختلفا في الجانب الآخر ،فالشافعي جمع في معناه بين العزائم وما يستتبعها من مقاومة محاولات الإذلال،والنفس وما تأباه،فقدم الهمة على النفس وكأنها شيئ منفصل عنها،في حين عبر أبو تمام بالعار لعمومه الذل وغيره، واستعماله كأنَّ في التشبيه حيث يقوى الشبه ،حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به [2] 0 فلا هو أبعد الشبه وإنما قال على سبيل التأكيد إنه هو، وكان إعلانه –أن الكفر أقل رتبة من العار عند المرثي– الريشة التي أضافت اللمسة الأخيرة للصورة البنائية للمعنى، وكانت مفيدة للتدرج الوصفي لنفس تعاف العار،فقد بلغت قمة الحال فيه،فمقدار الرفض للعار يساوي مقدار الخوف من الكفر عند حساب يوم الحساب،فزاد معناه عن معنى الشافعي من هذه الزاوية(الكفر دون الذل)،واتفق كل منهما في إشعار استمرار الفعل بصيغة المضارعة في :(ترى – وتعاف) فأكدا بذلك تجدد الأنفة والعزة في كل حال ومآل0

*ومن تشبيهات الشافعي المفردة ما قاله في رثاء أبي حنيفة النعمان :

لَقَدْ زَانَ البِلَادَ وَمَنْ عَلَيْهَا ∴ إِمَامُ المسْلِمِيْنَ أَبُوْحَنِيفَةَ [3]

بِأَحْكَامٍ وَآثَارٍ وفِقْهٍ ∴ كَآيَاتِ الزَّبُوْرِ عَلَى الصَّحِيْفَة

أراد الإمام الشافعي أن يؤكد تبجيل المسلمين للإمام أبي حنيفة ،وثقل

---

(1) ديوان أبي تمام : ت / محمد عبده عزام – ص 67– دار المعارف – ط رابعة القاهرة.

(2) ينظر عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص – ج3 – ص394– دار الكتب العلمية – بيروت.

(3) الديوان – ص 286.

قيمته العلمية وآثاره الفقهية فشبه أحكامه وآثاره تلك بآيات الزبور المكتوبة في صحف موسى عليه السلام،بل يتحير الذهن هنا أهي آيات الزبور فقط ؟ أم هي آيات الزبور على صحف إبراهيم عليه السلام؟ويكون مرامه من ذلك الإشارة إلى أنه لبنة من لبنات الفقه التشريعي كما أن الزبور تعاليم ربانية مستمدة من صحف إبراهيم،بل ربما يشيرإلى النغمة الخاصة بداوود عليه السلام في تلاوة الزبور،واتفاق أبي حنيفة معه في الأداء،مما يؤكد عمق أحكامه وأصالة استمدادها،والغرض من التشبيه بيان مقدار حال أبي حنيفة في قوة العلم وثقة المصدر ،وقد التقط الشافعي حدود الصورة من منظور التفرد وعدم المناظرة ، فأصبحت المتعة التي منحتها الصورة دليلًا على الجوانب الخفية للألفاظ التي يستكشفها المشبه،لأن اللغة طوع الفهم ،والتشبيه رسول بين عقل وعقل وحسنه يرجع إلى ما يبلغه من صورة ومعنى ،وبنائه الأسلوبي عرض عظمة آراء أبي حنيفة حين نكر ألفاظ (أحكام – آثار– فقه) وحين التقط وجه الشبه من بعيد غير مألوف ولا معتاد عليه يستوقف العقل عجباً منه ، وانطباع الدهشة والاستغراب يستمر،حتى تستند النفس إلى أمر تقريبي ،و حتى تصل إلى ترابط لم يكن ليلاحظ سريعًا0

*ويقول الشافعي في الصبر ترغيبًا :

وَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ حَظَّهَا ∴ وَ اصْبِرْفَإِنَّ الصَّبْرَ جُنَّةٌ [1]

يجدد الإمام حكمته وخبرته الشخصية ،فيعرض رأيه الداعي إلى أن عزيمة الإنسان هي التي تصنع مسار دنياه، سواء أراد أن يكون من الأغنياء أم من العلماء ، ويؤكد أن هذا الشأن الذي يريده من اختار لن يكون بين يوم وليلة ، بل يتطلب ويستلزم وجود الصبر،فرياضة النفس التصبر،وحسن التقبل

[1] ديوان الشافعي – ص 0377

للأمور،ولذلك قال:حظها ، ولم يقل حظك،وحتى تتضح قيمة الصبر وحاله كان التشبيه لاستحسان الصبر وجعله منظرًا تأتنس به النفس، ويثير فيها إحساس الجلال والشجاعة،ويدفعها للثقة والطمأنينة،وقد برع الشافعي في التقاط المشبه به ؛إنه الجُنة:والجُنَّة بالضم [1] السلاح الواقي،والستر الحامي،ومنه كلمة التقوى،والبون شاسع بين دلالة

كلمة الصبر وإيحاءاتها،وبين كلمة الجُنَّة ومضموناتها،والجمع بينهما في جهة واحدة يشير إلى فطنة،لإشراك المعنوي(الصبر) للحسي(الجنة)في جهة التعلق بالنتيجة،ومن جهة الدلالة النفسية والشعورية،التي يستدعيها كلاهما في النفس،ومن جمع بين عنصري الشكل والمضمون،بحيث لا يكون ثمة تعارض في الجو النفسي الذي أشاعته في الخيال، فالتمس من الحسي مثيلًا تراه العيون وتلمسه الأيدي،فاختار الواقي من درع وغطاء وسائر أنواع الأسلحة،فكما يحمي السلاح مرتديه من الإصابة كذلك يحمي الصبر المتخلق به من المهالك،ومن الندم والوقوع في الخطأ،وحماية من كشف الدواخل النفسية،فجمع الشافعي بالتشبيه بين عنصرين مختلفي الشكل متفقي الوظيفة والنتيجة،ولو أزيل التشبيه من الكلام لاختل ميزان المعنى،فلنا أن نقول: الصبر يحمي ،فهل وقع العبارة كعبارة التشبيه؟ شتان بين تخيل درع وغطاء محسوس وبين عرض لقيمة الصبر وحدها،ولذا عرَّف الصبر ،ونكَّر الجنة حتى يذهب الخيال فيها أي مذهب ،وأنها

---

[1] الجنة : جنَّ الجيم والنون أصل واحد وهو الستر والتستر،والمجن الترس وكل ما استتر به من السلاح فهو جنة(مقاييس اللغة:أحمد بن فارس–ج1–ص377– ت عبدالسلام هارون– نشراتحاد الكتاب العرب ط 1423ه2002م)0والجنة السترة وغطاءلرأس المرأة ووجهها،وكل ما وقي من سلاح وغيره،يقال: الصوم جنة: وقاية من الشهوات،(ج) جنن(المعجم الوسيط –ج1–ص141– مادة جن).

وقاية عظيمة لا يدرك كنهها بالأوصاف،وحتى تظل النفس متشوقة إليها،كما أكد الجملة لإزالة أي تردد في قبول مضمون حواره0

*وفي العلماء وبيان فضلهم يقول الشافعي :

وَخَالِطْ رُوَاْةَ العِلْمِ وَاصْحَبْ خِيَارَهُمْ ∴ فَصُحْبَتُهُمْ نَفْعٌ وَخُلْطَتَهُمُ غُنْمُ

وَلَاْ تَعْدُوَنَّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ فَإِنّهُم ∴ نُجُوْمُ هُدَىً مَاْمِثْلُهُمْ فِي الوَرَى نَجْمُ[1]

يخاطب المتعلمين ناصحًا إياهم بملازمة العلماء، وتخير خيارهم عند المصاحبة،والاقتداء، وانطلاقًا إلى ما يعرف موضعه ويتحدد مداه شبههم بالنجوم، تتملاها العين،وتغري الخيال،حتى تتخيل النفس جلال موضعهم ،و سطوع شأنهم ،بالتقاط ملمح التشابه بين العلماء والنجوم على الرغم مما بينهما من تباعد،فألف بين مختلفين في الجنس(جرم سماوي وجنس بشري) بمشابهة من ناحية الشهرة ومن ناحية الإفادة،تمكن القبول والإجابة في النفس ،وقد استقى التشبيه مما هو شائع معروف، وهو تقليد يتوارى فيه إحساس الشاعر ،ونبض مشاعره الذاتية ،حين قال: ما مثلهم في الورى نجم، ومن ثم المطابقة بين طرفي التشبيه ليست في صالح النجوم ،لأنها عند النظر إليها تتساوى،أما العلماء فقد استطاع بهذه العبارة أن ينفي المماثلة لهم ،ووضع في الحسبان الدقة في الوصف بهذا التفصيل،وبإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء ، وسامع وآخر، ويتسع في الوقت نفسه للإيحاء بالتفرد،لما يدل عليه ذلك من ملاحظة أدق لمظاهر الاشتراك بين الطرفين0 وتشبيه العلماء بالنجوم وهي صورة مادية أضفت عليهم عظمة وجلالًا،وضاعف من جمالها موقعها في السياق،وبناء العبارة نفسها،بالتأكيد (إنهم) وإضافة النجوم للهدى، ووصف حالهم بانتفاء وجود نظير لهم0والغرض منه بيان قيمة العلماء وتزيين حالهم ، فساعد التشبيه على الإدراك

[1] ديوان الشافعي – ص0341

الكلي للقيمة العلمية للعلماء0

*وبعد الحديث عن العلماء يصف الشافعي وصفة علمية لتثبيت المعلومات ،فيقول :

العِلْـــمُ صَـــيْدٌ وَالكِتَابَـــةُ قَيْـــدُهُ ∴ قَيِّـــدْ صِـــيُوْدَكَ بِالحِبَـــالِ الوَاثِقَـــةِ

فَمِـــنَ الحَمَاقَـــةِ أَنْ تَصِـــيْدَ غَزَالَـــةً ∴ وَتَتْرُكَهَا بَـــيْنَ الخَلَـــائِقِ طَالِقَـــةً [1]

يحث الإمام على كتابة العلوم ،لتكون ثبتًا ومرجعًا ،وحتى يقرر هذا المعنى في ذهن المتلقي لجأ للتشبيه،بالجمع بين طرفين متباينين من حيث الجنس، وإن كان التشابه بينهما في الموضوع محققًا، بتحديد موضع ومدى وشكل للمعقول(العلم) يتعرض للصيد،فنراه يشبه العلم بالغزالة،ويشبه كتابته بالقيد مثل الحبل ونحوه،والغرض تقرير صفة المشبه في ذهن السامع من حيث القوة،وترجع قيمة التشبيه هنا إلى قدرة الشافعي على التقاط ملمح التشابه بين هذين الأمرين على الرغم مما بينهما من تباعد شديد ،أدرك بحاسته مبلغ إصابته وعظيم توفيقه في اقتناص هذه الصورة، واجتلابها من موطن البادية، التي عاشها وعاشته، ولما كان يمكن أن يتردد في قبول كلامه ،دلل على إمكانه بطريق الحجة والبرهان المساق في شكل التشبيه الضمني في البيت التالي ، فقد بناه على نظرية واقعية منطقية لاستنفاذ قوة الفكر ،نظرية الصيد والمصيد،إذ كيف يترك العلم دون تقييد،كما لا يمكن أن يتخيل ترك الصائد للغزالة حرة طليقة بعد تعب صيدها،فهي لن تبقى في أسره كما لن تبقى المعلومة في ذهنه دون كتابتها،بما ينجم عنه من زيادة الاشتراك والتماثل بين الطرفين، وبالتالي القفز إلى الإقناع بجدية الفكرة، مضيفًا إلى المعنى ندرة الحدوث في الواقع ،لأنه لا يحدث إلا من أحمق0فأوجد الشافعي سندًا من الذوق والحس الجمالي بين العلم

[1] ديوان الشافعي – ص0294

والغزالة، وجعله شاخصًا ماثلًا أمام العيان،وربط الخيال بينهما في عدة معان مترابطة ما دام المنطلق واحدًا في الحالتين0

*ومن تشبيهات الشافعي في أثر العلم على نفس صاحبه بقوله:

إِذَاْ لَمْ يَزِدْ عِلْمُ الفَتَى قَلْبَهُ هُدَىً ∴ وَسِيْرَتَهُ عَدْلًا وَأَخْلَاقَهُ حُسْنَاً

فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللهَ أَوْلَاْهُ نِقْمَةٌ ∴ يُسَاْءُ بِهَا مِثْلُ الَّذِي عَبَدَ الوَثَنَاْ [1]

تحدث الإمام هنا عن مردود العلم الحقيقي ،على العقل والذكر والخُلق، فإذا خالف العالم هذه الأصول الثلاثة فإنه بذلك يرتكب معصية ، سيسأل عنها ويحاسب عليها، وحتى تتأثر نفس المتلقي قرن المعنى بالتشبيه لما يقتضيه من التقرير،وأداء المعنى بطريق غير مباشر من وصف بالإثم لم يصرح به في الكلام، كما يعقد التشبيه مقارنة ذهنية تصب في ميزان القبول والإذعان،فربط بين عدم استفادة العالم من علمه في شئونه الحياتية ، وعدم استفادة العابد للوثن من عبادته، ووجه الشبه سوء الاستخدام في كل،فحصر المعنوي في استيعاب وحَدٍ ومدى حسي حتى تظل فيه ذاتية ملحوظة في الذهن بحكم وجوده ،إذ ما يدرك بالحس أسبق في الوجود مما يدرك بالفكر، فساعد التشبيه على دعم التقبيح والرفض،إذ كيف يتحول العلم من سبب للسعادة والهناء إلى سبب للشقاء والعناء؟إنه خطاب عقلي في صورة بيانية،وبناء عبارة التشبيه آزر من عضد المعنى فكان المجاز المرسل (قلبه) لعلاقة المحلية ، والاستعارة التهكمية في (فبشره) إذ التبشير يكون بالشئ الذي يسر،فكيف يسر الإنسان بالنقم والسيئات؟ حيث استعيرت البشارة للإنذار الذي هو ضدها بإدخاله في جنس البشارة هزء وسخرية . [2]

---

[1] ديوان الشافعي – ص 0372

[2] بتصرف علوم البلاغة – أحمد مصطفى المراغي –ص224– المكتبة العصرية –

*وبعد ذلك يذكر الشافعي حق العلم على مالكه حيث يقول:

وَلَمْ أَقْضِ حَقَ العِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ∴ بَدَا طَمَعٌ صَيّرتُهُ لِي سُلَّمَاً [1]

ساق الشافعي التشبيه هنا في سياق ذم الطمع ،ومدح القناعة والعزة ،وبالتشبيه بيَّن أنه لو جعل العلم وسيلة يصل بها إلى ما يصبو إليه فإنه بذلك ما وفي حق العلم عليه ،بل ضيع أداء حقه،وحتى تتغلغل الفكرة إلى ذهن المتلقي كان التشبيه،الذي أوجد حلقة وصل بين جنسين مختلفين (العلم والسلم) إنها شدة اختلاف في شدة ائتلاف ،حتى تقع الحواس على صورة العلم في شكل السلم ،وحتى يظفر بعون ذي قيمة يكشف من خلاله خواطره ويترجم عن فكره ، فاستطاع التشبيه تلك الترجمة وما يحتويها ،واحتيال الحس ،بصفة مناسبة ووجه مناسب ، وارتباط يتوافر معه الانفعال، وتكامل الصورة ، فالعلم يشبه السلم في إيصال صاحبه إلى مراده ، ووجه الشبه بلوغ المراد في كل ،ووجه الشبه يشترك فيه الطرفان ،بسبب مباشرة أسبابه،وقد مس نقطة جوهرية في الموضوع ،حيث كان اشتراك الطرفين فيه اشتراكاً حقيقياً ، وإن تفاوتا في القوة أو الشدة،والغرض من التشبيه تقرير صفة أداء حق العلم في نفس السامعين ، وقد بنى عبارة التشبيه في سياق الشرط ب(إن) دلالة منه على أنه على سبيل الشك وناسب هذا الشك التقليل الوارد في تنكير كلمة (طمع) أي إن بدا طمع ولو كان قليلا لن يحدث منه استخدام العلم كوسيلة،وفي ذلك كناية عن الأمانة التي حملها لنفسه ووجب عليه سدادها0وهكذا أدى التشبيه المعنى بطريق غير مباشر ،وما أتبعه من فروع وجزئيات من بيان قناعته وأمانته0

*وفي الوقت الذي يرفض فيه جعل العلم سلمًا لنيل أهوائه،يجعل الرجاء

بيروت1429ه.

[1] ديوان الشافعي – ص 0347

في الله وعفوه هو السلم لينبه على أن الشيئ قد يستعمل في الأمرين:المرفوض والمقبول بقوله :

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ∴ جَعَلتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَاً [1]

قال الإمام هذا البيت قبيل مرضه الذي مات فيه [2] ويظهر فيه جليًا طلب رحمة الله وغفرانه،وهذا الموضع الثاني لاستعمال المشبه به (السلم) وثمة دلالة نفسية جيدة في عقد التشبيه بين الرجاء والسلم،ذلك أنه مع تماثلهما في الاتصاف بالامتداد يثير السلم إيحاء بالوصول،وذلك يجعله أكثر ملاءمة وأشد تجانسًا مع أحاسيس الشافعي النابعة من يقين بالرحمة،والخيال هنا عدسة الشاعر التي يستشرف بها آفاق المجهول،وتوليد استجابات معينة في نفس المتلقي ، تقترب مما استحوذ على نفسية الشاعروأحاسيسه،توصلا إلى إثبات الصلة بين الرجاء والسلم،وقد أقره وسوغه اتساع رحمة الله لكل شئ،واستمداده من ذات الشاعر ومشاعره الخاصة،مما تطلب أساس

صحيح من الصلة بين المشبه والمشبه به مما يزيد تمثلنا لها ،وأنها صفة يتعين الاعتداد بها في وجه الشبه،فالتقط الشافعي الامتداد والإيصال ومكنه من نفوسنا والتقط من بين مشاهده صورة درجات السلم التي تهيئ للمسافات البعيدة ، وتوصل للهدف،وتحقق الغاية، لأنها تمثل المعنى المجرد أو الإحساس النفسي والشعور الباطني وتبرزه في صورة مادية ملموسة، فالتمس تباعد الجنس بين الطرفين،ثم نفذ إلى إدراك علاقة بينهما،ولا يتأتى ذلك إلا لمتعمق الملاحظة،وأشبع من خلالها احتفاء النفس بما يخرج من موضع ليس بمعدن له ،فللخيال دوره0

---

[1] ديوان الشافعي – ص 352.

[2] سير أعلام النبلاء – ج 10– ص075

*ومن التشبيه المفرد وصف الشافعي للدنيا ووجهة نظر الصالحين فيها بقوله:

إِنَّ لِلَّـــــهِ عِبَـــــادًا فُطَنَـــــاً ∴ تَرَكُـــوْا الـــدُّنْيَا وَخَـــافُوا الفِتَنَـــاْ
نَظَـــــرُوْا فِيْهَـــــاْ فَلَمَّـــــاْعَلِمُوْا ∴ أَنَّهَـــا لَيْسَـــتْ لِحَـــيٍّ وَطَنَـــاً
جَعَلُوْهَـــــاْ لُجَـــــةً وَاتَخَـــــذُوْا ∴ صَـــالِحَ الأَعْمَـــالِ فِيْهَـــاْ سُـــفُنَاً [1]

بفطنة العالم وذكاء الفقيه وصف الشافعي الصالحين من الناس والعباد،وحتى تتقرر صفة هؤلاء في ذهن السامع لجأ للتشبيه لإظهارها في ما هي فيه أظهر وأقوى(اللجة: معظم الماء الذي لا يدرك قعره –السفن)،إذ بالتشبيه يظهر حال الدنيا وتقلبها وعدم استقرارها،وتظهر قيمة وأثر الأعمال الصالحة،وكيف أنها توصل للهدف والغاية مثل السفن التي توصل الناس إلى ديارهم وبلدانهم وأماكن استقرارهم،فهل يمكن أن يتصور الرسو إلى شاطئ الجنان بدون الوسائل الموصلة إليها ؟كما لا يمكن أن يتخيل السير في اللجة بدون السفن،ويبعث التشبيه هنا إحساساً بالضرورة والوجوب،لأن وجه الشبه الذي يلتقي فيه الطرفان يتولد من قناعة بالفكرة،فمن للإنسان غير الأعمال الصالحة تصل به إلى بر الأمان وتصل به إلى شاطئ الجنان؟فإذا نظرنا إلى مكونات كلا الطرفين وجدنا أنه يمكن إجراء تشبيهين مستقلين ؛أحدهما تشبيه الدنيا باللجة، في عدم الاستقرار والتقلب، والآخر تشبيه الأعمال الصالحة بالسفن،ووجه الشبه كون كل منهما وسيلة للنجاة ،بيد أن تمزيق الصورة على هذا النحو يفقدها سر جمالها وتأثيرها،فإذا نظرنا نظرة متأملة أدركنا أن المعنى لا يستقيم إلا بالمزج بينها،وجعلها تشبيهًا واحداً مركباً،في رؤية الصالحين للدنيا شبيهة بالبحر الذي لا يصلح للعيش فيه بدون السفن،كما أن الأعمال الصالحة هي وسيلة الوصول للغاية

[1] ديوان الشافعي – ص 0373

الكبرى(الجنة)، إذ كان التشبيه الواصف للعين التموج والاضطراب في البحر،الذي لا يرى فيه بناء،ولا تدرك فيه الحشود البشرية،تظهر فيه سفن النجاة تلوح في الأفق،وما كان هذا التأثير النفسي ليتم لدى المتلقي لولا تلك الصورة الحسية0وتنكير اللجة للتعظيم وقد قابله جمع السفن وتنكيرها المفيد للتكثير،فزادت الصورة لمسات الريشة الفنية للمعنى0

وقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب قوله"وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها،وأعطوا أزمتها،فأوردتهم الجنة"فتجد صورة الناقة الذلول قد سلس خطوها، وخف عنانها، فتنطلق بصاحبها في رسيم كالنسيم حتى تدخل به الجنة،وعاطفة الميل إلى لذة المتقي الوادع، وقد سارت به تقواه،وقد اختار الألفاظ المناسبة للفكرة ؛كالمطايا وما يلائمها من الانقياد [1] . وهكذا اتفق كلاهما في اتخاذ الوسيلة سواء كانت برية أو بحرية،وإن كانت صورة المياه أكثر بياناً لصعوبة الحياة وتقلباتها،إلاأن تشبيه علي بن أبي طالب جعل التقوى مطايا أي متعددة الوسائل ثم قيدها بالذلل إشارة إلى طواعيتها ،وجعل زمام تلك المطايا في يد أصحابها من الأتقياء إشارة إلى تحكمهم فيها0

[1] بتصرف : البلاغة فنونها وأفنانها- ص0237

المبحث الثاني

التشبيه المركب بنوعيه (الصريح والضمني) وأثره في المدلول

تعريف التشبيه المركب :ما كان وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدد ،وهو نوعين : صريح وضمني0

أولاً: التشبيه المركب الصريح :

ما صرح فيه بأركان التشبيه المعلومة 0 وقد ورد في تشبيهات الإمام الشافعي على النحو التالي :

*يقول في وصف حال الدنيا من وجهة نظره الخاصة :

فَلَمْ أَرَهَاْ إِلّاغُرُوراً وَبَاْطِلَاً ∴ كَمَاْ لَاْحَ فِيْ ظَهْرِ الفَلَاةِ سَرَابُهَاْ
مَاْهِيَ إِلّا جَيْفَةٌ مُسْتَحِيْلَةٌ ∴ عَلَيْهَاْ كِلَاْبٌ هَمُهُنَّ اجْتِذَابُهَاْ [1]

أراد عرض رؤيته للناس بعرض حال الدنيا وحقيقتها ، فأكد خداعها وبطلانها ،ولجأ للتشبيه التمثيلي المؤكد بالحجة والدليل والبرهان العقلي،فإن تشخيص الدنيا في صورة مادية أضفى على المعنى وأكسبه ثراء وقوة،جمعت بين شيئين أبعد ما يكونان عن التقارب والائتلاف(الدنيا والسراب) وكلا الأمرين من واد بعيد عن الآخر،فالدنيا المزدهرة منظراً وحال بطلانها وزيفها أمر معنوي يتصور في الذهن ولا يرى بالحواس مؤلف من عنصرين مترابطين المنظر الخادع والحقيقة الخفية، والسراب الذي يظهر للرائي من اشتداد الحر في الصحراء الواسعة أمر حسي،وهو أيضاً مؤلف من عنصرين وكان عقد الصلة من حيث أن المشبه والمشبه به أمران يرتبطان بالرائي والرؤية،والغرض من التشبيه : بيان إمكان المشبه لكونه أمراً غريباً للمحب والراغب لها ،وحتى يمكنه من نفس

---

[1] ديوان الشافعي – ص 0128

المتلقي صوره له بالمثال التشبيهي ليدلل على إمكانه ،ثم يواصل ويتابع الصورة بتشويه شأن الدنيا،وزاد من إيضاح رؤيته حين جعلها جثة

نتنة يتنازع سحبها واغتنامها مجموعة كلاب اجتمعت همتهن على تحصيل أجزاء وقطع منها ،وقد وقع التشبيه هنا من النفس خير موقع ، فقد توسل به إلى تشويه طالبي الدنيا، بعمق الفكرة ،وغزارة المعنى،ووضوح الإقناع،ووظف الروابط والصلات بين الأشياء المتنافرة،ولولا تلك الصورة المشينة لما انتقلت الفكرة إلى الفطرة،ولما انتقلت من الغموض إلى البديهة،وما يستتبع ذلك من إزالة الشكوك،وحتى ندرك أثر التشبيه لنا أن نخيل سقوطه من الكلام،فقد أصبحت الصورة دليلا على الجوانب الخفية للفظة،ومن هنا كان التشبيه مانحًا للمعنى، ولعله اقتبس تلك الصورة من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في الدنيا (وقد رأى سقطًا من المعز، فيسأل:أهانت هذه على أصحابها ؟ فيقول : للدنيا أهون على الله من هذا عليكم) [1] فانظر إلى ذلك التسفيه في ذلك القالب البديع ، إذ عمد الرسول إلى أن يقرر حقيقة الدنيا لأصحابه ولمن بعده، وتأثر الشافعي بتلك الصورة فصاغها صياغة جديدة زاد من بشاعتها مفردات بناء العبارة،من قصر الدنيا على الجيفة، وحذف أداة التشبيه تأكيداً على عدم تفاضل الطرفين،وتساويهما مرتبة وشأناً ،ومن تفصيل في الوصف من كونها مستحيلة ، في استنفاد قوة الاستقصاء ،بما يضيف إلى الصورة من لمسة قوية ينشأ عنها حضور وجداني ووجود نفسي وما يتأتى إلا لقلة من الأفراد يتميزون بعمق الملاحظة()ومن استعارة الكلاب للمتصارعين على الدنيا فشهوتهم تؤدي إلى الافتراس دون اهتمام بالكيفية أو عناية بالنوعية،وما في ذلك من اتفاق وتناسب مما يعمل في إيجاب المعنى يرجع إلى قدرة الشافعي الفنية على التقاط ملمح

[1] صحيح مسلم كتاب الزهد والدقائق ص 2272 ت محمد فؤاد عبد الباقي دارإحياءالتراث.

التشابه0ثم التعريض بالمقبلين عليها مع بشاعة منظرهـا ذاك،وتنكيـر الكـلاب المفيد للتكثير،واختيار لاح بدلًا من ظهر أو بدا لما فيها من تأكيد معنى الإشـارة الحسية0

*ومن حكم الإمام التي ساقها بأسلوب تصويري مخاطبته التـي تطالـب بالاحترام والوقار،فيقول:

احْفَـظْ لِشَـيْبِكَ مِـنْ عَيْـبٍ يُدَنَّسُـهُ ∴ إِنَّ البَيَـاضَ قَلِيْـلُ الحَمْـلِ لِلْـدَنَسِ
كَحَامِـلٍ لِثِيَـابِ النَّـاسِ يَغْسِـلُهَا ∴ وَثَوْبُهُ غَارِقٌ فِي الرِّجْسِ وَالـنَّجَسِ [1]

خاطب واعظ الناس المذكر بالعواقب فـي حـين أنـه فـي غفلـة عـن أفعاله،فأولى به أن ينصح نفسه، وحتى تثبت العظة ،وتكتمـل النصـيحة سـاق التشبيه،واستطاع بالحركة أن يحيل صورة المتصيد لأخطاء غيره من الناس وهو ذاته متغلغل في تلك الأخطاء، إلى صورة متخصص غسيل الثيـاب –فهـو فـي مضمار النظافة واحد من رجالها– ومع ذلك ثيابه غارقة في الاتساخ والقذارة، يا لها من صورة مرفوضة،يتعجب الرائي منها،والغرض من التشـبيه تشـويه وذم المراقب لعيوب الناس،مع تقرير حاله في نفس السامع،بإبرازها في ما هـي فيـه أظهر وأقوى،فازدادت الفكرة وضوحاً،وتأثيراً ،يبرز فيها سوء الانشـغال بشـيئ غيره ألزم بالانشغال به،إذ كيف ينتقد بعيونه الآخرين وللآخرين عيون؟ وقد بـرع الشافعي في التقاط الصورة ، فقيمة التشبيه هنا تكمن فـي دلالتـه علـى عمـق الملاحظة ونفاذ الرؤية،فألف في صنعته بين شكلين لا يأتلفان،النقد والوسخ،اتفقا على أداء قيمة معينة،وحسـن اسـتغلال الإمـام واستكشـافه لأوجـه التوافـق بينهما،يجعل المتلقي تتبدى له جوانب الصورة كاملة،مما يحفـز سـرعة الفهـم والاستجابة،فها هو النقد يتحول إلى وسخ يتلبس ثياب المنتقد،تقع عليـه العـين

[1] ديوان الشافعي – ص 0252

المتيقظة للألوان ،ويتلبس به الحس،كأنما تتملاه العين لأول مرة، يستنطق البصر والبصيرة معاً،فإذا نظر العقل إليها نظرة فاحصة أدرك أن الصورة لا تستقيم،وهنا يتبع هذا الرفض النفسي الرفض الفعلي0وبناء عبارة التشبيه أكمل براعة الصورة،انظر إلى تعبيره بالحامل ،فالحمل يقتضي التعب والجهد،فأي حركة نفسية وأية سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات الموقف تشير لها هذه الكلمة؟ والتعبير بالمضارع في (يغسلها)يدل على تجدد واستمرار الغسل، والمجاز المرسل (ثوبه) لإطلاق الثياب على النفس،والاستعارة في لفظة غارق وما تشعر به من سيطرة وشمول وإحاطة،والجناس بين الرجس والنجس،أدى وظيفة في المعنى0كما يفهم أن الخطاب موجه للشباب الذي يجب أن يدخر لشيبه في بنك الحياة ما يحفظه من المعايرة0وإذا أردنا أن ندرك قيمة الصورة في تعبير الشافعي لننظر إلى معناه وقد ورد في قول آخر بدون التشبيه ، حيث يقول الشاعر:

لَاْ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ∴ عَارٌعَلَيْكَ إِذَاْ فَعَلْتَ عَظِيْمُ [1]

إن الصورة البيانية في تعبير الشافعي أبلغ في التنفير، وأقوى في الدلالة والإقناع بالحجة والبرهان،لإتيانها المعنى مصحوباً بالدليل العملي،بينما كانت مباشرة الأسلوب في هذا البيت سبباً في التوبيخ الصريح،والمباشرة دائماً تقلل من سرعة الاستجابة، لخلوها من التأثير النفسي الخفي، والبعد عن الوجود الجديد للأشياء القائمة على التشابه العقلي الواضح بين المشبه والمشبه به،وقصر

[1] اختلف في قائله اختلافاً كثيراً ، فنسبه بن سلام في أمثاله للمتوكل الليثي أحد شعراء الكوفة في عصر معاوية ونسبه إليه أيضاً الآمدي في المؤتلف والمختلف،ونسبه سيبويه للأخطل،ونقل السيوطي عن تاريخ بن عساكر أنه للطرماح،والمشهور أنه من قصيدة لأبي الأسود الدؤلي(خزانة الأدب لابن حجة الحموي –ج3– ص275–ت/عصام شعيتو– دار الهلال– بيروت– 1987م).

المعنى على مجرد التذكير باللوم والعيب، فأين هذا التعبير من صورة الوسخ الواضح للرائي؟ وأين هذا من صورة التباين القولي والفعلي الظاهر بالألوان؟0

*ومن التشبيهات الصريحة المركبة قول الشافعي :

يُخَاطِبُنِي السَّفِيْهُ بِكُلِ قُبْحٍ ∴ فَأَكْرَهُ أَنْ أَكُوْنَ لَهُ مُجِيْبَاً
يَزِيْدُ سَفَاْهَةً فَأَزِيْدُ حِلْمَاً ∴ كَعُوْدٍ زَاْدَهُ الإِحْرَاْقُ طِيْبَاً [1]

حين أثبت الإمام الشافعي صفتين متناقضتين؛زيادة السفاهة لدى خصمه، ويقابلها زيادة الحلم والعقل لديه،ولما كان ذلك غير ممكن في مجرى العرف والعادة،من هنا ضرب المثل بالتشبيه ليدلل على إمكانه،فكيف تتأتى زيادة الحلم مع زيادة السفه ؟ فكانت صورة البخور الذي تستطيبه الناس عند الإحراق،لتبين إمكانه ولتبدد كل ما يدور حول هذا المعنى من غموض، فحين يكون لدى الإنسان معنى أو خاطر يود إبرازه بصورة قوية ،فإنه يلجأ إلى ما بين يديه من أشياء محسوسة ليلتمس فيها تمثيلاً لما يدور بذهنه،ولذا شبه الشافعي ضبط طبعه وستره عن هيجان الغضب،عند سوء تصرف السفيه في الخطاب وما يستتبع ذلك من نيل تقدير الناس إثر ذلك،بالبخور تستطيبه النفوس حين إحراقه فتعظم قيمته وتزداد معرفة جودته،ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من استجادة الشئ بعد تعرضه للأذى لظهور حاله،وقد التقط الصورة من البيئة العربية مما يؤكد أصالة التشبيه،ثم ارتفعت مكانته بسبب تلمسه الوجه قويًا بين معنوية السفاهة وحسية البخور،وجعلهما متجاورين في الخيال،مما دلل على سند الذوق والحس الجمالي لدى الشافعي،وزان الصورة بناء عبارته،فقد خيل للرائي تجدد حدوث زيادة السفاهة بالفعل المضارع (يخاطبني- يزيد)،وسرعة الترتيب بالفاء في (فأزيد) ،وتنكير كلمة الحلم المفيد للتكثير ،وهذه مناسبة معنوية للفظة الزيادة المتكررة

[1] ديوان الشافعي – ص0144

في البيت ثلاث مرات (يزيد- أزيد- زاده)وقد ناسب اختيار الرائحة الزكية للذكر الطيب من حيث اختيار المشموم ،وما يشير إليه من قدرة على التفريق والاختيار0وهذا المعنى ساقه أبو تمام حين قال:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيْلَةٍ ∴ طُوِيَتْ أَتَاْحَ لَهَا لِسَانَ حَسُوْدِ [1]

وهنا تجد أن المعنى الذي قصده الشاعر قد تمَّ وكمل، ولكنه أحس بأن قوله يحتاج إلى حجة،فأنى للحسود أن يكون سببًا في انتشار الفضيلة التي طويت وغيبت؟وكأنما الأمر يحتاج إلى حجة تصدقه،فأعقبه بالبيت الآخر:

لَوْلَاْ اشْتِعَالُ النَّارِ فِيْمَا جَاْوَرَتْ ∴ مَاْ كَانَ يُعْرَفُ طِيْبُ عَرَفِ العُوْدِ

ألا ترى أن الشاعر قد أزال من النفس كل ما علق فيها من شك،أكانت تفوح رائحة العود الزكي لولا اشتعال النار في كل ما حوله؟ألا ترى الكلام يسري بين الناس كما يسري دخان البخور إلى الأنوف،وبالتالي ندرك قيمة الخطاب العقلاني في صورة تشبيهية تخاطب إحساس الوجدان،واختلف التشبيه هنا في النوع،فالتشبيه عند أبي تمام تشبيه ضمني، ساقه عقب المعنى ليكون بمثابة دليل وبرهان، وهكذا اتفق الشاعران في المعنى ،واختلفت صورة التشبيه عندهما فالشافعي تشبيهه صريح جاء عقب المعنى،أشار فيه إلى تعدد محاولات السفاهة،بينما جاء التشبيه الثاني ضمنيًا عقب المعنى أيضًا، لكننا نلمح بكل وضوح أنه لا يقل أثرًا عن التشبيه الصريح،جاء المعنى فيه عامًا،واختص معناه بالحديث عن الحسود وليس السفيه، بعكس الشافعي الذي ساق تجربة ذاتية،وما استتبع ذلك من الخصوصية،ومن تعريض بالقبح الشكلي الظاهر من السفيه0كما وقف الشاعران عند صورة البخور ورائحته،واتفق كلاهما في التماس وجه مناسب للمشبه يرسم جزئيات الواقع،واستمداده من البيئة العربية ما يؤكد

[1] ديوان أبي تمام – ص 085

أصالتهما،وحسن التماسهما للصلات بين الأشياء المتفقة المختلفة؛اختلفت في النوع ،واتفقت في الصفة0

*ومن تشبيهات الشافعي المركبة الصريحة قوله:

والنّاسُ يَجْمَعُهم شَمْلٌ وَبَيْنَهُم ∴ فِي العَقْلِ فَرْقٌ وَفِي الآدَابِ وَ الحَسَبِ[1]

كَمِثْلِ مَا الذّهَبِ الإبْرِيز يَشْركُهُ ∴ فِي لَوْنِهِ الصُّفْرِ وَالتَفْضِيلُ لِلذّهبِ

وَالعُوْدُ لَوْ لمَ ْ تطَبْ مِنْهُ رَوَائِحُهُ ∴ لَمْ يُفَرِّقْ النَّاسُ بَيْنَ العُوْدِ وَالحَطَب

ويأتي حديث الإمام عن اتفاق الناس على أصل واحد في الخليقة (آدم)إليه السلام مع اختلافهم بحسب العقول والآداب والأصول النسبية ، ومن خلال ملاحظاته وجد الناس يفضل بعضهم البعض بالنظر إلى ظاهرهم المادي ، بغض النظر إلى مخبرهم ويشير إلى عدم موضوعية هذا الحكم ،ولمَّا كان ذلك أمراً غريباً ،دلل على رأيه بواقع عملي مشاهد لإثبات إمكانيته،ألا وهو تفضيل الناظر للذهب واختياره دون الإبريز،وهو الذهب النقي الخالص من الشوائب،على الرغم من اشتراكهما في اللون،لإيثاره الشكل والصورة على الجوهر والمضمون،بسبب قدرة الذهب على التشكل السريع بسبب اختلاطه بالشوائب في أي صورة،بخلاف الإبريز،ورغم جودة وأصالة الإبريز لكونه أعلى وأغلى إلا أن التفضيل من جهة الناس يكون للذهب ، وقد ساق التشبيه في سياق بيان إمكان وقوع التشبيه ،حتى يمكن فهمه وتصوره ، وحتى يثبت استنتاجه،كانت صورة الجمع بين العقلي (التفضيل) والمادي(الذهب والإبريز) وهي صورة تدل على دقيق الملاحظة لمظاهر الاشتراك بين الطرفين،واقتراب أشد من كمال التطابق بينهما،وعلى هذا الأساس أقام مفاضلته، وإذا التفتنا إلى البيت الثاني وجدناه ينمي صورة عدم الموضوعية البشرية،ويسارع في الإقناع بالفكرة،أوليس الذهب المفضل دون

[1] ديوان الشافعي – ص0145

الإبريز أقل قيمة ؟ أوليس الذهب قادرًا على التشكل كما يقدر الناس غير المتأصلين على التبدل والتلون؟فماذا بعد هذا المرئي يثبت الحجة؟ كما استعمل في التشبيه (كمثل) لغرض الشافعي إثبات وتأكيد التشبيه بتأكيد أداته،مما يؤكد عقد الصلة بين المشبه والمشبه به0ثم يواصل تأكيد التفرقة بين الناس مهما كان التخفي، فالأصل يغلب،ولذلك أتبع التشبيه الصريح السابق بالتشبيه الضمني في البيت الثالث، فيأتي بالحجة لتبدد كل التساؤلات السابقة،ألا ترى صورة اجتماع الحطب مع البخور في سلة واحدة ،ومحاولة التخفي في ركابه وظلاله،وعلى الرغم من التشابه الشكلي والملمح الظاهري إلا أن رائحة البخور الزكية تصل الأنوف،فتميز بين النوعين، فماذا يكون بعد ذلك ؟وماذا بعد الحكم بالشم وتحسس الفروق؟ فنجد التشبيه الضمني قد نجح في الإقناع والإمتاع،وفيه عمق الفكرة،وغزارة المعنى،فلم يقل أثره عن التشبيه الصريح،بل أتم الصورة،وأكدها،وهكذا تتابع المشاهد وترتفع نسبة قبول الفكرة ،فيتجاوز الخيال مجرد الطرح إلى الإذعان والقبول والتأييد0وهذه ثاني صور الشافعي في تشبيهه بالبخور،أولاهما كانت في الحلم،وهذه كانت في الأصل والنسب،مما يؤكد فراسته الأدبية،وتعدد قدراته البلاغية،وحسن استنباط المعاني،فصورة واحدة صاغها لمعنيين مختلفين0

*وتتواصل حكم الشافعي ووصاياه إلى الطبائع الإنسانية بالتحكم في الهوى في قوله:

المَرْءُ إِنْ كَانَ عَاقِلَاً وَرِعَاً ∴ أَشْغَلَهُ عَنْ عُيُوْبِ غَيْرِهِ وَرَعُهُ
كَمَا العَلِيْلُ السَّقِيْمُ أَشْغَلَهُ ∴ عَنْ وَجَعِ النَّاسِ كُلِهُم وَجَعُهُ [1]

إن طبائع البشر جبلت على النقد للآخرين،ومتابعة وملاحقة

[1] ديوان الشافعي – ص 0268

عيوبهم،ووازع الورع يمنع الانشغال بعيوب الغير،ووجوب الانشغال بالعيوب الذاتية،ولما كان ذلك يحتاج إلى تقرير وحتى يبرز هذا المعنى العقلي،لجأ إلى المحسوس يعرضه في صورة التشبيه المركب الصريح،حتى يقترن المعنوي بالمحسوس في الخيال،والملاحظة ويستوقف العيون،ويستنطق القلوب،وقد التمس العون من مخزونه الذهني ومحفوظه البشري،ورصد ظاهرة إنسانية،تتراءى للجميع،بتذكير الناقد بأنه أرجى له النظر نظرة فاحصة متأملة لحاله الشخصي، حتى يدرك أنه أولى به الانشغال بعيوبه الذاتية لا عيوب الغير،مثل المريض المنشغل بوجعه،وبالتفكير في التداوي من الأوجاع عن التفكير بأوجاع غيره،ووجه الشبه :وجوب الانشغال عن الشئ بشئ هو أكثر منه إلزاماً وحتمية،كأنما يعبر عن تعجبه من الفعل وعدم الفعل،ويمضي به إلى رفض السلوك وقد ترك المتلقي أن يفكر فيما عدا ذلك من المعاني التي يكره لها ترقب عيوب الناس،وتوليد استجابات معينة في نفسه تماثل أو تقترب مما استحوذ على الشاعر،وانبثقت عنه رؤيته،وقد صدق التشبيه في شحذ وظيفته الفنية،بالإقناع والإمتاع،إذ كيف من كانت هذه صفته يفكر بالآخرين؟ وكيف من كان وسخه بهذه الصورة ينظر للناس بعين الناقد؟إنه منظر للبصر والبصيرة معاً،يقف لمحتواه العقل الحكيم، ويتعداه سقيم الفكر اللئيم0فيستعيض من الوصف الحركة والتصرف،ويبرز المفارقة بين عين الناقد والعين الذاتية السلبية للعيوب الشخصية،وعدم موضوعيتها في الموقفين0كما أن بناء عبارته زاد من ملامسته الوجدان،فقد زاد الوصف وصفاً لتحقيق التشبيه بقوله العليل بعد السقيم، لأن السقم المرض المختص بالبدن [1]،بينما العلة تخص النفس ،وبذلك يكون قد جمع مرض البدن والنفس من هم وحزن، كما اختار لفظة الوجع دون الألم،لأن الوجع

[1] المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني- ج1- ص235 مكتبة الأنجلو – القاهرة – بدون

وجع الرأس من تعادي الوساد [1] . والوجع اسم جامع لكل مؤلم [2] ما يشير إلى شدة نوعية الألم وطول الملازمة0وتلك ثاني صوره في التنفير من نقد الآخرين؛حيث صور أولًا الناقد بغاسل ثياب الناس وثيابه متسخه،وهنا صوره بالمريض المتألم يشغله ألمه،فجمع في الصورتين بين الألم الجسدي المتمثل في التعب من الغسيل، والألم النفسي من المرض مما استوفى المعنى من جميع جوانبه0

*ويواصل الشافعي تشبيهاته المركبة الصريحة حيث يقول:

فَمَنْ حَوَى العِلْمَ ثُمَ أَوْدَعَهُ ∴ بجَهْلِهِ غَيْر أَهْلِهِ ظَلَمَهُ

وكَانَ كَالمبُتْنَي البِنَاءَ إِذَاْ ∴ تَمَّ لَهُ مَاْ أَرَادَهُ هَدَمَهُ [3]

ينصح كل ذي علم ألا يودع علمه من هو غير أهل لهذا الإيداع،وقد أثار هذا في نفوس المتلقين التردد، ولذا أتى بالدليل المشاهد المرئي لدى المخاطب،وقد تمثل في صورة المبتني صرحًا من المباني حتى إذا اكتمل رأيناه يشرع في هدمه وإزالته،ووجه الشبه:فعل مالا يتوقع واستتباعه الحسرة والندم من المشاهد في كل،ويتمثل في أن هذا الوضع يتم أصلا بجهد فردي،وفيه انحراف عن المسار العقلاني للفعل،بما يمكن تسميته بالمغالطة التي ليس لها أصل،والتشبيه يشد الانتباه للتأمل والتمحيص،حتى ينسحب إلى قناعة المتلقي بصحة ما ورد،ويبصر منها أعماقها ،ويجاوزها إلى رد الفعل المتوقع في تلك اللحظة،وهل يفجر المشهد من أحاسيس الألم والحسرة في نفس من يراه أكثر مما تفجر لحظة هدم البناء بعد اكتماله؟وهل هناك مشهد للعين أشد تأثيرًا من هذا

---

[1] الفروق في اللغة – ص072

[2] المعجم الوسيط –ج 2– ص1056– مادة وجع.

[3] ديوان الشافعي – ص 0355

المشهد؟

و هل هناك من يحدد الحقيقة تحديدًا وثائقيًا مثل هذه اللقطة ؟ كما بنى الشافعي تشبيهه بعبارة زادت من تكوين الصورة،فلننظر لبناء اسم الفاعل(المبتني)وصيغة الافتعال هنا وما توحي إليه، كما ننظر للحرف (ثم) وبلاغته في موضعه،والتعبير في الشرط ب(إذا) وتعريف البناء،وكان الطباق بين البناء والهدم حتى تستوفي الصورة أركانها،عن طريق التضاد واختلاف الحال،وهذا نوع من الإيقاع الدلالي لما فيه من طابع المفارقة،على نحو يسمح لنا بتصور مدى الاختلاف،مما يزيد الصورة عمقًا وتأثيرًا0وقد وردت صورة وحال المصلح الذي يفسد الغير ما يصلحه في قول الشاعر:

مَتَىْ يبلْغُ البُنْيَانُ يَوْمَاً تَمَامَهُ ∴ إِذَاْ كُنْتَ تبَنْيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ [1]

و هذا البيت يختلف في الصورة وفي المعنى؛في الصورة من حيث أنها هنا استعارة تمثيلية[2] وليست تشبيهًا تمثيليًا،وفي المعنى من حيث أن الهادم هو غير الباني فالحسرة والحزن تتم بشكل أقل، لكون الباني يقصد الإصلاح ،ويأتي من يهدم بنائه بقصد الإفساد،فالفاعل في الحالين وفي الصورتين ليس واحدًا، كما أن الشاعر بدأ معناه بالاستفهام الاستبعادي،أوالمفيد للنفي مما يثير الانتباه للعقول،إذ الإجابة تأتي بعد اقتناع0

*ومن التشبيه الصريح المركب قول الشافعي في وصف جموع الحجيج

---

[1] ينسب هذا البيت لصالح بن عبد القدوس : الأزدي الجذامي ،مولاهم أبوالفضل ،شاعر حكيم،كان متكلماً يعظ الناس في البصرة،اتهم بالزندقة فقتله المهدي العباسي،توفي160ه(الأعلام –ج4–ص145).

[2] علم البيان دراسة تحليلية د/ بسيوني عبد الفتاح فيود – مؤسسة المختار دار المعالم الثقافية– الإحساء ط ثانية 1425ه–2004م.

بعد الوقوف في عرفات :

سَحَرَاً إِذَاْ فَاْضَ الحَجِـيْجُ إِلَـى مِنَـى ∴ فَيْضًا كَمُلْتَطَمِ الفُـرَاتِ الفَـائِضِ [1]

إن العقل والفكر ليقف عند هذا التشبيه،إذ وصف تدافع جمـوع الحجـيج وتضاربهم في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه الأعداد بمثل الحال في زماننا هذا،ومع ذلك وصفهم بالأمواج المتلاطمة المتدافعة في الكثرة والمجاورة،بعد الوقوف فـي عرفات،واختصت الصورة وقت السحر قبيل الصبح بتلك اللقطة الفوتوغرافية،التي تثير الخيال والوجدان،وقد استقاه الشاعر من ذاكرة أسفاره إلى الشام، ومشاهدته الفعلية لنهر الفرات،مما يمس صدق الصورة والتجربة،ويتلاحم مع الحس العددي والكمي للمشبه،ومحاولة لتقديم أساس جمالي واضـح،بما يضـيف لمسـة قـوة التدافع،وهو تشبيه جمع بين متباعدين : البشر والنهر،كَمٌّ بشري وكَمٌّ مائي، التقيا في لقطة وملمح التشابه،وإن كان الوجه متحققاً في الشكل،مما يؤكد صفة الإبداع في التشبيه الحسي،الذي يقع بين أمرين مختلفين في الجنس أشد الاختلاف،وقـد كان الشاعر دقيقاً حين قيد المشبه به بقوله (الفائض) إذ دلت على تمام المماثلـة بين الطرفين وهذا التحقيق في الوصف عنصر شكل وصوت وصل به إلـى حـد التطابق،وبذا يبلغ التشبيه مداه من حيث تمام المطابقة بين الطرفين0كما تناسقت الصور البيانية وتجاورت لإيصال مراد الإمام في توضيح صـورة النـاس يـوم عرفات،إذ عبر بدقة بالغة عن الحركة المتدافعة،فكانت كلمة فيض وما أشعرت به من الغزارة التي لا تقف ما تابعها الخيال،والكناية عن موصوف هو المـوج فـي لفظة متلاطم،فالخيال يظل يتصور تلك الحركـة الدائبة،وقـد أجـاد فـي التقـاط المشهد،ليتوجه بقوة إلى عواطف المتلقي وأحاسيسه،وهكذا تحيا الصورة وتتحرك وتمـوج وتضطرب،ترسـم صـورة حافلـة بالحركـة المتجددة،والمشـاهد

[1] ديوان الشافعي – ص 0267.

المتتابعة،وترسم خلالها نموذجًا إنسانيًا نموذج الجنس البشري واجتماعه في حيز مكاني ضيق خاص بالعقيدة0 وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنَى كُلَّ حَاجَةٍ ∴ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ [1]

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيْثِ مابَيْنَنَا ∴ وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

أراد الشاعر سارت المطي سيراً حثيثاً في غاية السرعة،وكانت سرعة في لين وسلاسة كأنها سيولاً وقعت في تلك الأباطح،فجرت بها،ومثل هذه الاستعارة في الحسن واللطف،وعلو الطبقة في لفظة سالت وجعل سال فعلا للأباطح،ثم عداه بالباء ،ثم بأن أدخل الأعناق في البيت،فقال بأعناق المطي،ولم يقل بالمطي لأن السرعة والبطء يظهران غالباً في أعناقها0وقد استحسن هذه الأبيات أبو هلال العسكري في الصناعتين،والإمام عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة أطال الإطراء للبيت الثاني منها حين قال عن الاستعارة بإصابتها الغرض " إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح000 [2]

*ومن تشبيهات الشافعي المركبة الصريحة قوله في الحسين شهيدًا :

ذَبِيحٌ بِلَا جُرْمٍ كَأَنَّ قَمِيْصَهُ ∴ صَبِيْغٌ بِمَاءِالأُرْجَوَانِ خَضِيْبُ [3]

---

[1] رويت هذه الأبيات غير منسوبة إلى قائل معين،وإما مختلفة النسبة، رواها ابن الأثير في المثل السائر(ج2ص66) غير منسوبة،وأبو هلال العسكري في الصناعتين ص73،أما روايتها منسوبة فالقاضي الجرجاني في الوساطة ص34،يروي البيت الأخير وينسبه إلى ابن الطثرية،والشريف المرتضى في أماليه(غرر الفوائد ودرر القلائد) ص 457 نسبه إلى المضرَّب : عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى.

[2] أسرار البلاغة –عبد القاهر الجرجاني– ص23– ت/ ه ريتر – دار المسيرة – بيروت ط ثالثة 1403هـ.

[3] ديوان الشافعي – ص 0122

يصف الشافعي في هذا البيت الحسين رضي الله عنه وأرضاه بعد مقتله،فبدأ التعبير بحذف المشبه و بتقرير أنه المذبوح بلا جريرة أو ذنب،وزاد إيضاح وتبيين المشهد بالتشبيه،فتتابع الوصف بطريق المبالغة في الصياغة،ومنح التشبيه الشافعي فرصة لعرض إحساسه ما يجعل النفس تتلقى جزئيات الصورة،وليتركنا بعد ذلك نستحضر في مخيلتنا وأذهاننا أي مشهد كان،وليدعنا نتملى الصورة، فمثله بصفة المصبوغ ردائه بماء الأرجوان: الذي هو صبيغ أحمر كان الفينقيون يستخرجونه من بعض الصدف) أي صبغ قميصه بدمه الأحمر،كالأرجوان مما غير لونه وصار كأنه مخضباً بالخضاب، وهي صورة استمد عناصرها من البيئة العربية المحيطة،بما يضيف للصورة من لمسة قوية،وانطلاقا إلى ما يعرف موضعه،ويتحدد مداه إنها صورة الخضاب ولونها،وفيما يتعلق بتباعد طرفي التشبيه، الذي ينشأ عنه عادة تباعد في الوجود النفسي والحضور الوجداني، تباعد ما بين القبول والاستحباب للخضاب وبين الرفض و الاستكراه للدماء،إنه تباعد أدى إلى تآلف مما يؤكد قيمة التشبيه هنا،وعمق الملاحظة،وصفة إبداع الشافعي الذي جمع بين أمرين مختلفين في الجنس أشد الاختلاف،وعظيم اقتناصه للصورة،لأن الصورة بداخلها لون خاص،أو لونان متقاربان،لون صبغة الأرجوان،ولون الخضاب؛ لون الدماء لون الشهادة ولون الخضاب لون الفرحة بدخول الجنة ،مما يؤكد دقة التنسيق وجمال الاختيار لتناسب جو الحدث،مما يشير إلى عين المصور الدقيقة لجزئيات اللون والدرجة الخاصة به،إنها عين تستوعب جزئيات الصورة،لإيصال المعنى المراد بأتم صورة وأدقها،وهي صورة قريبة للذهن والخيال حتى تراها البصيرة بعد أن تتملاها الأبصار لأنها تشبع العين بالألوان 0

*ومن تشبيهات الإمام المركبة التي جمعت الصريح والضمني معًا قوله

في الترغيب بالاغتراب :

وَالتِّبْرُ كَـالتُّرْبِ مُلْقَـى فِـي أَمَاْكِنِـهِ ∴ وَالعُوْدُ فِي أَرْضِهِ نَوْعٌ مِنَ الحَطَـبِ

فَـإِنْ تَغَـرَّبَ هَـذَاْ عَـزَّ مَطْلَبُـهُ ∴ وَإِنْ تَغَرَّبَ هَـذَاْ عَـزَّ كَالـذَّهَبِ [1]

يلح الشافعي على فكرة تحبيب الغربة ،وحتى تقتنع النفس الإنسانية التي من طبيعتها الجدل لجأ للتشبيه،لما لايدرك بالبديهة بل لابد فيه من التروي وإنعام النظر،وعلى هذا الأساس أقام مفاضلته،وحسن استغلاله واستكشافه لجوانب خفية تجمع بين الطرفين(الشخص المهمل في موطنه والذهب الملقى في التـراب دون استخراج)فالطرفين مختلفي الأصل لكن بينهما في الوقت نفسه حالة وتناسباً تجعل اجتماعهما في صورة واحدة ممكناً،إنها حالة الإهمال وعدم الاهتمام ممـا يقفـز بهما إلى وحدة المصير،حتى نراهمـا متجاورين،ولـذا أكـد المعنـى بتشـبيهين متواليين؛التشبيه الأول: تشبيه ذات الشاعر وعدم اكتشاف الناس لمكانته بيـنهم بالتبر لم يستخرج من

التراب،ووجه الشبه اختفاء قيمة الشيئ وراء شيئ أحقر منه،وهنا يظهـر في الأفق عدم القبول فتأتي الحجة في التشـبيه الثـاني متمـثلاً فـي التشـبيه الضـمني،فتؤكده بصـورة حسـية،تنمي الصـورة السـابقة،تبدد وتقـوض أي تردد،فمردها الأول إلى المشاهدة،ألا ترى العيون العود طالما في أرضه نوعاً مـن الحطب،لصعوبة التفرقة بينهما في الشكل الظاهري،ولفقـد المـؤهلات،لكن متـى تظهر الحقيقة التائهة ؟ متى يعرفها الجميع؟وتأتي الإجابة:الحقيقة مـا تلبـث أن تنجلي في الحالتين عندما يتغرب التبر تشتد رغبة الناس إليـه وتجتمـع همـتهم عليه،وعندما يتغرب العود يصير مطلوباً كالذهب في إقبـال النـاس عليه،ووجـه الشبه قوة الطلب على الشئ وارتفاع القيمة بسبب ندرته،وهذا التشبيه يظهر علم

[1] ديوان الشافعي – ص 151.

الإمام بالنفوس البشرية التي تبحث دائماً وأبداً عن البعيد ،وليس القريب،كما دلل على فراسة الشافعي وبديهيته،وهو تشبيه مستمد من البيئة العربية لكن سكب عليه الإمام من جزئيات الصورة ما حوله إلى جديد العرض حين تحصل له التأثير والتأثر،وهكذا حالة التغرب عن الأوطان تصبح مقبولة نفسيًا واجتماعيًا،وما يبعثه ذلك من شعور بالإغراء للفعل،ببناء عبارته من استعماله الإشارة للقريب في الموضعين،لتأكيد المساواة بين المشار إليه في كل منهما،ومن استعمال (إن) الشرطية الدالة على أن استمرار الغربة أمر مشكوك فيه،والجناس المقلوب بين التبر والترب وما أضافه من نغمة موسيقية تلفت الأسماع كما تلفت الأفهام، كما يدل الجناس على براعة الشافعي اللغوية0

و مما ورد في ذات المعنى قول الشاعر :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالعَيْشِ فِيْهِمْ ∴ وَلَكِنَّ مَعْدَنَ الذَّهَبِ الرَّغَامَا [1]

اتفق الشاعر هنا مع الشافعي على التأثير الوجداني الخاص بالمشاهدة البصرية، وما يستتبعها من استنتاج وقياس عقلي،يعرضها متدرجة الخطوات،حيث نفي كونه من هؤلاء الناس على الرغم من عيشه بينهم،وهنا يتردد السامع في قبول منطقه، فيطالب بالبرهان عليه،ويأتي العرض وكأنه جديد، يوجه النظر إلى تفصيل يمر عليه

الناس غافلين؛إنه الذهب على ارتفاع قيمته وعلو مكانته في أصل وجوده بين التراب، وبعد ذلك يترك العرض يؤثر في النفس على مهل حتى تقر في النهاية بصدق المنطق وواقعيته،كل ذلك تمَّ له بطريق التشبيه الضمني،يصور الجدل التصويري ،وإلى أي مدى وصل،إذ تتعانق فيه المعاني الذهنية والحالات الشعورية مع الأشياء المجسمة،وكلا الأمرين من واد بعيد عن الآخر0كما اتفق

---

[1] ديوان المتنبي – ج1– ص125–دار المعرفة بيروت.

الشاعران في اختيار صورة الذهب الملقى بين التراب،ويظهر من كلام المتنبي احتقاره لعامة الناس كافة،لا يعترف للخاصة بأي ميزة مما يوحي بالغرور المذموم شرعاً،لكن الشافعي بنفس المؤمن التقي يأبى احتقار الآخرين، كما زادت صورته بتأكيد على تأكيد ليقع في النفس ما يقع من الأثر ،فيستعرض صورة العود بعد الذهب،ويعقد مقارنة احتياجية للصورتين، وذلك فن من تناسق العرض، لينتقل السامع من هذه المشاهد المتتابعة بعد استعراضها للعين والخيال ،فيجئ التقرير0

ثانياً : التشبيه المركب الضمني :

وهو التشبيه الذي لم يصرح فيه بأركان التشبيه المعلومة،ولكنه يفهم ضمناً من السياق [1] . ويقصد المتكلم إلى هذا الأسلوب من التشبيه حينما يأتي بمعنى من المعاني،وقضية من القضايا،ثم يرى أن يأتي لها ببرهان ودليل،ويقيم عليها الحجة،وهو ليس صورة واضحة مألوفة يتأتى إدراك التشبيه منها للوهلة الأولى كما هو الشأن في التشبيهات السابقة، بل يتخفى التشبيه في ثنايا العبارة،ومن هنا كانت تسميته بالتشبيه الضمني0

وإلى جانب ذلك يغلب على بنائه اللغوي أن يأتي طرفاه في تركيبين متواليين،لكل منهما معناه المستقل،بينهما في الوقت نفسه علاقة تناظر،وهذا هم مبنى القول بالتشبيه،كذلك يغلب أن يرتبط التركيب الثاني الذي هو المشبه به بالتركيب الأول وهو المشبه بالواو أو بالفاء . [2]

*ومن تشبيهات الشافعي الضمنية في ديوانه قوله :

---

[1] علوم البلاغة- ص0196.

[2] التعبير البياني – ص041.

وَمَاْ ضر نَصلَ السَّيْفِ إِخْلَاْقُ [1]غَمْدِهِ ∴ إِذَاْ كَاْنَ عَضبِاً حَيْثُ وَجَهْتَــهُ فَــرَى
فَــإِنْ تَكُــنِ الأَيَــاْمُ أَزْرَتْ بِبَزَّتِــي ∴ فَكَمْ مِنْ حُسَاْمٍ فِي غُلَاْفٍ تَكَسَّــرَا [2]

الشاعر أراد أن يقرر عظمة وقيمة نفسه،مع ارتدائه ملابس بالية رثــة، وبرر ما يبدد كل ما يدور حول منظره الرث مع النفس الجليلة الكبيرة،إذ مــن ذا الذي يقتنع بمثل هذه الصورة الرثة للثياب؟ ومن ذا الذي يرضى بالمظهر الجديــد الجميل بديلاً؟ فتأتي الإجابة بخطاب عقلي مسكوب في قالب فني، تبرز المفارقــة بين الظاهر والباطن،وحاجته إلى الفكر هنا تجد العقول فيهــا لذة،تســعد الــنفس بها،فضرب المثل بالممكن حتى يبين إمكان ما قال،فيأتي بالحجة لتبدد كل ما فــي النفس من تساؤلات حول هذا المعنى،فيسوق الدليل الواقعي من خلال مشــاهدات الأحداث والوقائع الحياتية، فشبه جلال نفسه في ملابسه تلك المنتقدة شكلا والتي قد تحقر هيئته بالسيف القاطع الذي لا يضيره أن يبلى جرابــه،فهو يظــل ســيفاً بجوهر مادته،ألا يظل حادًا حازمًا وعزيمته مضاء،ألا يظل صقله يبــرم المواقــع مهما كان الجراب؟ووجــه الشــبه هيئــة الشــئ المســتحقر وبداخلــه الشــئ العظيم،والغــرض بيــان إمكــان المشــبه،بالجمع بــين عنصــري الشــكل والمضمون،واعتماد أحدهما أساسًا للحكم بالحسن أو القبح،وجعله سبب الفضــيلة أو النقيصة،وبهذه الموازنة العقلية ضاعف جانب الاقتناع،بأن سبب الفضــيلة أو النقيصة يرجع في الأصل إلى الجوهر وليس الشكل،تلتقي فيه الصــورة الحســية بالصورة النفسية،وليست هذه صورة تقع مرة وتمضي،ولكنها نموذج مكرر فــي بني الإنسان،لا يتقيد بالزمان والمكان0ورؤية الشاعر النفسية النابعة من معاناتــه

---

[1] خلق يخلق إخلاقًا : بلي يبلى0 أخلق الثــوب والجلــد :بلــي (المعجــم الوســيط–ج1– ص261مادة خلق).

[2] ديوان الشافعي – ص 0226.

قد انطبعت على تشبيهه وعلى مفرداته ،فبدأ بالاستفهام التقريري،ونكر كلمة الحسام للتعظيم0وهو تشبيه مستمد من البيئة العربية مما يؤكد أصالته،فالعرب كلها تدرك قيمة الحسام ومن هنا كان التشبيه به من خصوصيات البيئة العربية الأصيلة 0 وفي مثل هذا المعنى يقول ابن الرومي:

فَبِذَاتِ نَفْسِكَ مَاْ يَكُوْنُ بَهَاؤُهَاْ ∴ وَبِمَائِهِ كَانَ الحُسَاْمُ صَقِيْلَا [1]

تَبًا لِمَنْ تَعْمَى بَصِيْرةُ رَأْيِهِ ∴ حَتَى يَرَاْكَ بِمَا سِوَاكَ نَبِيْلَا

يقول :إن النفس لا يمكن إفادتها البهاء إلا إذا كانت فيها قابلية واستعدادًا،كما أن السيف لا يمكن جلاؤه إلا إ ذا كان فيه بقية ماء ، أما إذا فسد معدن السيف فلن يعود صقيلا0وقد اتفق كل من الشاعرين في تأكيد معنى الجوهر وأهميته،كما اتفقا في صورة الحسام واختياره مناسبًا لمعناهما،وفي كون التشبيه ضمنيًا وليس صريحًا،لكن زاد معنى الشافعي عن معنى ابن الرومي من حيث التباين بين المنظر الظاهر للعين والمخبر الخفي عنها،وتبرز صورة الجوهر في الضمير،وتناسقها في التوزيع بذكر الغمد المتيقن للعين زواله في حين يبقى ما صنع هو خصيصًا لبقائه،كما زان ابن الرومي معناه بالاستعارة المكنية حين أسند العمى لبصيرة الرأي،وجعل انتهاء الغاية في عمى البصيرة مساواة الشريف النبيل بمن هو ضده مما يؤكد الفكرة المطروحة0

وقد قال المتنبي في ذات المعنى :

لَاْ يُعْجِبَنَّ مُضِيْمَاً حُسْنُ بِزَّتِهِ ∴ وَهَلْ يَرُوْقُ دَفِيْنَاً جَوْدَةُ الكَفَنِ [2]

ينصح الشاعر السامع من يخفي مرارة الضيم بفاخر الثياب بزوال تلك الحال،ويتوسل الشاعر بما أعطي من بيان فيتوصل إلى ما يريده بالسؤال

---

(1) ديوان ابن الرومي – ص 122– .

(2) ديوان المتنبي – ج2– ص240.

المطروح والذي يحتاج إلى إجابة، ماذا يضير الدفين أيا كان كفنه؟فيؤكد أن جوهر المادة هو المؤثر الحقيقي،والحق أن الشاعر هنا أيضاً لجأ للتشبيه الضمني لترسيخ الفكرة لدى المتلقي،ونرى الشاعر هنا قد تطابقت فكرته مع الشافعي ،لكنه اختلف في التأثير النفسي حين لجأ إلى التذكير بفناء الجسد داخل الأكفان،وتذكير المتفاخر بحاله بعد الممات وكفى بالموت واعظاً حتى يرتدع المفاخر، ويركن الرث الثياب إلى الحقيقة الغائبة عن الوعي الإنساني،وقد وظف التشبيه استنتاج الروابط والصلات بين المعنيين،كما وظف الاستفهام للوصول إلى الحقيقة الغائبة التي تضيع وسط زحام الحياة0وأجدني أتمثل هنا قول أبي العلاء المعري :-

فَوَاْ عَجَبَاً كَمْ يَدَّعِي الفَضْلَ نَاقِصٌ ∴ وَيَاْ أَسَفَاً كَمْ يُظْهِرُ النَّقْصَ فَاضِلٌ

حقًا كيف تظهر العين للمتأمل تباين أحوال الناس،ولذا استهل عبارته بالنداء الملفت إلى أمر ذي بال ،هو التعجب من ارتفاع شأن الوضيع ،والأسف من انخفاض شأن الشريف،والتكثير العددي الدالة عليه (كم) واستعمالها في الموضعين يشير للتساوي0

*ومن تشبيهات الشافعي الضمنية قوله :

وَلَاْ تَرْجُ السَّمَاْحَةَ مِنْ بَتَخِيْلٍ ∴ فَمَاْ فِي النَّارِ لِلْظَمْآنِ مَاْءُ [1]

لقد تمت الفكرة التي طرحها بما لا مزيد عليه في الشطر الأول من البيت، لكن أليس الأمل قد يراود البعض عند الحاجة؟ أليس شأن النفس التطلع إلى الشئ حتى ولو كان بعيدًا؟ أوليس البخيل ينتمي للجنس البشري؟وحتى يقطع بالإجابة عن هذه التساؤلات،ساق التشبيه الضمني لإبراز المعنى باختصار في معرضه،ونقل المعنى إلى الصورة التي يمكن تقبلها فوضع إطارًا للصورة ونطاقًا

[1] ديوان الشافعي – ص 0112

للمشهد،ويطلق حولهما لونًا للنار المحرقة وامتناع اجتماعها في ذات واحدة مع الماء الذي هو ضدطبيعتها فمثل لذلك بصورة الظمآن الذي يتجرع العطش بحدود الكلمة، فإذا عيناه تتملى نارًا، فهل يأمل فيها ريًّا أو سبيلًا إلى ماء؟وهنا تأتي الإجابة القاطعة بالنفي، وتلك هي خاصية التشبيه الضمني القدرة على الإقناع فهو يفسر انقطاع الأمل بدمج صورة المعقول والمحسوس في مشهد واحد متنافر؛فيه الأمل واليأس،مشهد يصور نموذجًا واضحًا، تبرز المفارقة فيه منطقاً للإقناع،ومفاضلة بين المعنيين،واقتراب أشد من كمال اليأس في الصورتين،في قالب تعبيري يرجع فيه التشبيه إلى استمداده من البيئة الصحراوية، من شدة التطلع إلى المياه عند فقدها،واتساع تلك الحاجة شيئًا فشيئًا0و حسن موقع التشبيه من السياق،فإننا إذا تأملنا الحال قبل التشبيه وبعده نرى بونًا شاسعًا، ومسافة للخلاف متسعة،ألا ترانا نحس الفرق بين المعنى قبل التشبيه وبعده،لقد بعث المعنى إلى النفس بوضوح وجلاء،وبث فيه حركة يرتفع بها نبض المعنى،وتعلو بها حرارة الفكرة تتبدى في ملابسات شتى،تجعل العين تقع عليه،ويدور الخيال مع هذه الصورة؛صورة النار التي يستحيل وجود الماء فيها،إلى أي مدى تتأثر العين بتلك الصورة؟ وإلى أي معيار قياسي يمكن أن يقاس أثر البخل بعد هذه الصورة المرتبطة بالرائي والرؤية ؟0

وبناء عبارة التشبيه أقام جزئيات مستقلة بين الأجزاء المتقابلة، حين قال (في النار) ولم يقل من النار،وما أفاده من تجريد، وتنكير الماء المفيد للعموم ، والتقديم المفيد للاختصاص كل ذلك ساهم في دعم المعنى المراد0وإن كنت أعتقد أن الشافعي لو استعمل التمني هنا بدلا من الرجاء لكان أوقع، فيقول : (لا تتمن السماحة)لكنه ربما قصد انتفاء مجرد الرجاء وهو القليل،من باب الأولى0

ومن الشعراء الذين توافقوا مع الشافعي في نظرته للبخل والبخلاء أبو

نواس بقوله :

أبُـو نُـوْحٍ دَخَلْـتُ عَلَيْـهِ يَوْمَـاً ∴ فَغَـذَّانَا بِرَائِحَـةِ الطَّعَـامْ [1]

وَقَـدَّمَ بَيْنَنَـا لَحْمَـاً سَـمِيْناً أَكَلْنَـاهُ عَلَـى طَبَـقِ الكَلَـامْ

فَكَـانَ كَمَـنْ سَـقَى الظَّمْـآنَ آلا [2] وكُنْتُ كَمَنْ تَغَـذَى فِـي المنَـامَ

توافق الشاعر هنا مع بعض صورة الشافعي باختيار صورة الظمـآن،لكن أول ما يبدو للعقل هو فكاهة أبياته،فانتهج المنهج المتبع دائمًا في عرض صـورة البخيل مـن التندروالسـخرية،لكن صـورة الشـافعي امتـازت بجـديتها فـي الأسلوب،وبراعتها في التقاط الصورة المناسبة والموازيـة للمعنى،كمـا امتـاز الشافعي في عبارته بالإيجاز،أما أبو نواس فقد عرض المعنى عبر مواقفه التـي عايشها بطريق السردالقصصي وما استتبعه من إطناب،في ذكر صور مواقفه مـن وجود رائحة الطعام مع عدم تقديمه،ومن وعود كلامية تغري بـه،ومن المقابلـة الوصفية بين فعل البخيل وردة فعل الآمل فيه،والكناية اللطيفة عن الوهم والخداع (الحلم) في قوله: كمن تغذى في المنام،ولكن اتفق الشاعران علـى مبـدأ نقـد البخل،وإن كان الشافعي زاد معناه من جهة اليأس، وهو معنى لـم يطرحـه أبـو نواس، كما يعيب بيت أبي نواس ذكر شخص بعينه مما يدخله في باب المؤاخـذة الدينية(الغيبة)،كما كانت صورته مجرد سقي الظمآن عهداً ووعداً، مما يتفق مع فكرة الشافعي من بث الأمل ثم استبعاده، لكن زاد معنـى الشـافعي مـن حيـث الاستحالة العقلية، بل كان التشبيه الضمني عنده أسبق في تأكيـد المعنـى مـن

---

[1] ديوان أبي نواس – ص 284– ت/ أحمد عبد المجيـد غزالـي – دار الكتـاب العربـي– بيروت– 1993م.

[2] آلى : أقسم ،يقال :آلى عليه ومنه ائتلى : حلف (المعجم الوسيط – ج1– ص 25 مـادة ألا).

التشبيه الصريح عند أبي نواس0

***ومن تشبيهات الشافعي الضمنية قوله :**

وَلَتُخْبِـــرَنَّ خَصَاصَـــتِي بِتَمَلُقِـــي ∴ وَالمَاءُ يُخْبِرُ عَنْ قَـذَاهُ زُجَاْجُـهُ [1]

حين يكون لدى الإنسان خاطر يود إبرازه بصورة قوية فإنـه يلجـأ إلـى مابين يديه من أشياء محسوسة ليلتمس فيها تمثيلًا لما يـدور بذهنـه،وحين أراد الإمام الشافعي أن يبدي مدى استيائه من ظهور حاجته للمال علـى الـرغم مـن محاولته المضنية في الإخفاء لم يجد إلا عالم الحس ليوضح مراده، فانتقـل إليـه والتقط من مشاهده صورة الزجاجة التي بداخلها الماء المصـاب بالعيوب،تتبـدى وتظهر للناظرين حتى وإن لم يرد إظهارها،ووجه الشبه ظهـور الحـال لطبيعـة المادة مع محاولة الإخفاء والاحتواء في كل،والتشبيه هنا ضـمني يشـترك فـي تذوقه الفكر والوجدان معًا،لجأ إليه الشافعي لتقرير حالـه فـي نفـس السـامع بإبرازها في ما هي أظهر وأقـوى،وحتى تنتقـل الفكـرة مـن الغمـوض إلـى الوضوح،من لزوم معرفة الناس لعيب الفقر فيه،ولذلك بنى عبارتـه علـى جهـة التوكيد،واختياره لفظة الخصاصة دون الفقر مستخدمًا طاقة اللغة وإمكاناتها فـي الدلالة،إذ الأصل اللغوي للخصاصة [2] : الفرجة بين الأصـابع والخلـل والثقـب الصغير0ثم أطلقت على الفقر على سبيل الاستعارة فكما تحدث الثقوب في البيـت خللا كذلك الفقر يؤثر في النفس فيحدث ضـعفًا،لأن الخصاصـة مـن خصـائص البناء،وهذا التعبير خاص بالصورة القرآنيـة التـي وردت خاصـة فـي مـدح الأنصار،ويظهر اقتباس الشافعي للفظة،من القرآن في قوله تعالى(وَيُؤْثِرُونَ عَلَـى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)،واللفظة عند الشافعي قـد ناسـبت المعنى،فكمـا

---

[1] ديوان الشافعي – ص0172

[2] المعجم الوسيط–ج 1– ص0390

تحدث الفرجة ظهور ما وراءها كذلك الزجاج يظهر محتواه فأحدثت تجانسًا شكليًا وحركيًا استوفى عناصر الصورة0ويتضح أثر ومدلول التشبيه هنا بتصور زواله من المعنى ، فهل يبقى المعنى كما ظهر؟ وهل يكون الأثر كما وقع في النفس؟وهو القائل في موضع آخر من ديوانه:

وَأُظْهِرُ أَسْبَابَ الغِنَى بَيْنَ رِفْقَتِي ∴ لِيَخْفَاهُم حَالِي وَإِنِي لمَعْدَمُ [1]

ألا تراك تحس الفرق بين المعنى قبل التمثيل وبعده،ترى بونًا شاسعًا ومسافة ظاهرة بين التعبيرين والقائل في الموضعين واحد،وندرك بعدها اختلاف طبيعة الصورة الجزئية الخاصة بالفكرة، فتدخل فيها مدركات الحواس في الصورة الأولى،كما أن اختلاف العرض يبرز الفرق الأسلوبي ومقدار أثره في المعنى،والذي تمثل في تلك الصورة المتحركة التي عبر بها عن المعنى،تخيل حركة حسية لظهور الحال وتمنح الصورة قبولًا عقليًا حين بدت الفكرة عجيبة،لأنها في هذه الصورة أوقع وأظهر.

*ومن تشبيهات الشافعي الضمنية قوله :

اعْرِضْ عَنِ الجَاْهِلِ السَّفِيْهِ ∴ فَكُلُ مَاْ قَدْ قَاْلَ فَهُوَ فِيْهِ [2]

فَمَاْ ضَرَّ بَحْرَ الفُرَاتِ يَوْمَاً أنْ خَاضَ بَعْضُ الكِلَاْبُ فِيْهِ

يلاحظ تعدد صور الشافعي عن السفيه عبر ديوانه،مما يعكس كثرة تعرضه لمواقف السفه،لكن امتاز أدبه التصويري بالوصفة العلاجية، المستوفية جميع العوارض ولتأكيدها يسوق التشبيه هنا في معرض العلاج العملي لسفاهة الأحمق،وبعد النصيحة الموجهة الصريحة في البيت الأول بالإعراض عن السفيه الذي يدعي على العاقل،ويتهمه بصفات هي في السفيه ذاته،وحتى يدلل على قيمة

(1) ديوان الشافعي – ص 0337

(2) ديوان الشافعي – ص 0417

الإعراض والصد عنه ذكر الحجة،وأقام البرهان العقلي بطريق الواقع الفعلي،والبرهان القياسي،بإدراك تفاصيل لم تكن لتدرك بدون التشبيه،فبالتشبيه تحصَّل الإقرار بالفكرة،وخصوبة ما يرفدها،وما يترتب على ذلك من تنفيذها،فشبه نفسه عند صبره على ترهات السفيه ببحر الفرات في العظم وجلال القدر تخوض فيه بعض الكلاب لا تضره ولا تهز من شأنه وقيمته،ووجه الشبه جلال القدر والقدرة على الاحتواء والاستيعاب،انتقل فيه الحلم من معنى مجرد إلى شيئ ذي كثافة وعمق،وينتقل الحلم من تصور في الذهن إلى كمية ووزن!وما كل ذلك إلا تمشياً مع الفكرة البشرية في التجسيم ،وتخييل حركة من إشعاع التعبير0فالخيال يظل يتصور تلك الصورة ومحاورها من حركة البحر وحركة الخوض تتهيأ للذهن،يتمثلها بالجسم والأقدام،ثم يتمثل مقدار تلك الحركة وأثرها،فيبرزها نموذجاً بصرياً وما يستتبعه من اعتماد بصيريٍّ0 وهو ثاني تشبيه بالفرات في ديوان الشافعي ،بعد تشبيه حجاج عرفات به وكلا التشبيهين أصاب بهما المعنى المطروح،من تأكيد الغزارة والاستيعاب العظيم،كما يؤكد قدرة الشافعي على التعامل مع المعاني بالظواهر الأسلوبية ذات الوجود الفعلي،وقدرته على التعبير الصادق عن العلاقات الجديدة بين الأشياء0ونجد الشافعي قد استعمل(إن)الشرطية بدلا من(إذا)للدلالة إلى أن تعرض السفهاء(الكلاب) للحكماء(نهر الفرات) أمر مشكوك فيه عند العقلاء، فلا يصح أن يكون،كما خص نهر الفرات بالتشبيه لتعدد

المنتفعين به وتعدد روافده، كما يشير إلى حبه وتأثره النفسي به0وهكذا مكن التشبيه الشافعي من عقد صلة مفترضة يعبر منها إلى انفعال المتلقي، والتأثير الخفي عليه0

*ومن تشبيهات الشافعي الضمنية في الترغيب في الاغتراب وبيان مردودها المادي والنفسي وصفه الثاني لها ،لأنه سبق وأن علل للغربة بأنها

تظهر معادن البشر وقيمتهم [1] وها هو يقول هنا بطريق التشبيه الضمني :

سَافِرْ تَجِدْ عِوَضَاً عَمَّنْ تُفَارِقُهُ ∴ وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيْذَ العَيْشِ فِي النَّصَبِ

إِنِّي رَأَيْتُ وُقُوْفَ المَاءِ يُفْسِدُهُ إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

وَالأُسْدُ لَوْلَا فِرَاقُ الأَرْضِ مَا افْتَرَسَتْ وَالسَّهْمُ لَوْلَا فِرَاقُ القَوْسِ لَمْ يُصِبِ

وَالشَّمْسُ لَوْوَقَفَتْ فِي الفَلَكِ دَائِمَةً لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عَجَمٍ وَمِنْ عَرَبِ [2]

يعلل هنا عبر هذه الصورة الإمام الشافعي بعلة لطيفة للغربة وبيان فضلها،وهذا معنى عجيب فانظر كيف استحسن العلة وصاغها هذه الصياغة،حيث مزج الصورة البيانية بالصورة التعليلية،التي تقوم أساساً على التفكه والتظرف،ومن هنا كانت بحاجة إلى فطنة وبديهة،فقد يقبل العقل أن يكون الاغتراب عن الأوطان بسبب البحث عن المال،أو العلم لكن أن يسوق الشافعي علة الملل والسآمة،ورغبة في القبول والمحبة فتلك علة باعتبار لطيف0انتقل فيها التشبيه من مجرد أسلوب إلى خيال ودعوة عقلية للتفكير والتأمل،حيث بدأه بالمذهب الكلامي بالحجة العقلية عن فساد الماء عند عدم جريانه على وجه الأرض،وطيبه وقبوله عند جريانه،وأتم الصورة بتلك المقابلة الوصفية لحال الماء،وأثرها التعبيري في الدلالة عن تباين الحال،ثم كان حسن التعليل هنا عن طريق حسن التخييل المتمثل في التشبيه الضمني،إذ شبه نفسه أولًا في اصطياد العلم واغتنامه بالماء الجاري الذي تستسيغه النفوس،ووجه الشبه استحسان هيئة الشيئ بتغير الموضع،ثم تواصلت علله حينما شبه نفسه ثانيًا بالأسود تخرج من أوكارها لسد حاجة الجوع،ووجه الشبه الجسارة والإقدام في طلب المطالب ،كما شبه نفسه ثالثًا في إصابته مراده من العلوم التي يطلبها ويبتغيها بالسهام التي لابد أن تفارق محلها حتى تصيب الهدف،ووجه الشبه وجوب المفارقة لأداء المهمة المنوط بها، والغرض من التشبيه بيان إمكان محبة الاغتراب،لأنها تتكون بسبب أهداف عدة،ولما كانت الفكرة قد

---

[1] ينظر هذه الدراسة ص040

[2] ديوان الشافعي – ص 0151

يرفضها البعض تواصلت العلل باعتبار لطيف،فأضاف علة رابعة لمحبة الغربة تتمثل في رغبة المحبة من الناس ،وخوف السآمة والملل،كالشمس التي لو وقفت في مدارها ولم تغترب سيترتب على ذلك سآمتها وضجرها من سائر أنواع البشر من عرب وعجم،وهذا معنى عجيب،فانظر كيف استحسن هذه العلة،وهي علة تتسم بالعمق،والقدرة على رؤية الأشياء ووضعها في مكانها الصحيح،إذ ما يدرك بالحس أسبق في الوجود من ما يدرك بالعقل والفكر وهكذا وظف الشافعي التشبيه في التعبير عن رؤيته وتجربته باعتباره صيغة جمالية ذات دلالة فكرية وكان في تعامله به امتدادًا لاستغلال الطاقة الجمالية والدلالية لدى المبدعين القدامى،على نحو يسمح لنا بتصور الاختلاف بين حب الغربة وحب العلم ،وبين حب تحقيق المراد وحب إصابة السهم، مما ساعد على توليد المتآلف من المتعارض،والمنسجم من المتقابل، ومن الواضح أن كلا من الطرفين مباين لصاحبه من حيث الجنس مباينة شديدة ،وكلما كان التباعد شديدًا كانت قيمة التشبيه أعظم، وعلى هذا الأساس أقام مفاضلته للتشبيهات الأربع التي تضمنتها الأبيات لشعرية،وأحدث التجانس الشعوري بين طرفي التشبيه ،مما يؤكد صفة الإبداع لدى الشافعي0

ومعنى استحباب الغربة قد عبر عنه أبو تمام بنفس الحجة العقلية وبنفس الطريقة الفنية الأدبية (التشبيه الضمني) عندما قال :

وَطُوْلُ مُقَامِ المَرْءِ فِي الحَيِّ مُخْلِقٌ ∴ لدَيْبَاجَتِهِ فاغترب تتجدد [1]

فَإنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيْدَتْ مَبَةً ∴ إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَد [2]

وبالمقارنة نجد أبا تمام متفقًا مع الإمام الشافعي على الفكرة ،كما اتفق

---

(1) الديباج ضرب من الثياب مشتق من دبج الأرض المطر يدبجها روضها ،والدبج النقش والتزيين، وجمع ديباج دبابيج (لسان العرب –مج5– ص208–مادة دبج) والسرمد: الدائم الذي لا ينقطع(المعجم الوسيط–ج2– ص4440) .

(2) شرح ديوان الحماسة :للمرزوقي–نشره أحمد أمين – عبدالسلام هارون– ط ثانية– القاهرة 1967م– مطبعة لجنة التأليف والترجمة– 1387هـ.

معه في بعض جوانب الصورة باختيار جانب واحد من جوانبها؛صورة الشمس وزيادة الحب لها والشغف بها بسبب غيابها، فهي تروح وتجئ،وتغرب وتشرق،وهذا التعليل اللطيف بالاعتبار الحسن المتمثل في التشبيه الضمني أكد المعنى وثبته، بل تعددت الصور البيانية عنده، فكانت الكناية عن الهرم وتغير الشباب إلى المشيب في قوله مخلق لديباجته،لكن زان معنى الشافعي تعدد الصور للمعنى الواحد،فقد فتحت الصورة لديه التفصيل والتركيب وبالتالي التفضيل،بحسب أدائها واستفاذها قوة الاستقصاء، من الحاجة البشرية للماء الذي هو سر الحياة،ثم الحاجة إلى الطعام العنصر الثاني للحياة،ثم الحاجة إلى السكون والنوم العنصر الثالث للحياة الإنسانية،وبعد اكتمال العنصر الثالث يأتي العنصر الرابع المتمثل في الحاجة إلى تحقيق الغايات والأهداف،وهكذا لوحة بعد لوحة، نفع مادي ونفع معنوي،لينتقل العقل من هذه المشاهد المتتابعة بعد استعراضها للعين والخيال،وبعد تركها تؤثر في النفس على مهل،فيجئ التقريرمناسبًا،وذلك فن من تناسق العرض يدع العين تتملى المشهد المعروض قبل طيه،ويتيح الفرصة لألوان شتى من التأملات،وهكذا تضطلع الألفاظ بالتصوير،فتنتقل الغربة من معنى مرفوض إلى معنى مقبول يصطبغ بصبغة عقلية فنية جمالية،لأن الشافعي جمع بين حسن التعليل المتمثل في التشبيه والمذهب الكلامي في الجدل والاستدلال0كما أن الصورة قد تحقق فيها الجمع بين أمور متباينة في الجنس وهو ما يعبر عنه الفن الحديث باسم الهارموني الذي يعني تباين عناصر العمل الفني ثم توافقها وانسجامها على أداء قيمة أو إحساس معين ،مستخدمًا طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة. [1]

[1] الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر – د/ عبد القادر القط – مكتبة الشباب– 1978م.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الممتعة في بحور معاني تشبيهات الشافعي نقف على بعض أهم نتائج هذه الدراسة ، منها :

1-التشبيه عند الإمام الشافعي ضرورة لفظية ومعنوية،يضيع أثره لو أزلناه من البناء الكلامي،إذ يزول المعنى المقصود وتضعف قيمته،فمثلًا عندما يقول الصبر جنة ،هل وقع التشبيه يتساوى بقولنا الصبر راحة؟ شتان ما بين التعبيرين من مدلول0

2-استمد الشافعي تشبيهاته من البيئة العربية من أسد وقوس وعود وخضاب وسراب وذئاب وحسام وخراف مما يؤكد أصالة التشبيه عنده،والتقاطه أوجه الشبه عن تجربة ذاتية مباشرة0

3-تعددت وتنوعت صور التشبيه في المعنى الواحد عند الشافعي،وهو بذلك يتبع الأسلوب القرآني،وما ذلك إلا لتأكيد المعنى وتثبيته،مما يؤكد أيضًا تأثره الأدبي بالأسلوب القرآني،فنراه يشبه الناقد المتربص بالآخرين تارة بغاسل الثياب وثيابه متسخة،وتارة بالمريض الذي ينبغي أن يشغله مرضه وألمه عن أمراض(عيوب) الآخرين،كما نراه يشبه الحلم تارة بالمتجر،وأخرى بنهر الفرات،وثالثة بالعود،مما يدلل ذلك على تعدد قدراته وعمق ملاحظاته،وسعة حسه البلاغي الذي استوعب جزئيات الصورة المتعددة0

4- ربط الشافعي أساليب التشبيه بالخيال،فورد التشبيه الضمني في ديوانه دعوة فكرية تتيح تأملات شتى في صبغة فنية جمالية،كما في قوله:

فإن تكن الأيام أزرت ببزتي ∴ فكم من حسام في غلاف تكسرا0

5-استعماله في بناء عبارات تشبيهاته المقابلات المعنوية الوصفية مما زاد صورة التشبيه إقناعًا وإيضاحًا ،وهذا نوع من الإيقاع المركب: الدلالي وإيقاع

المعنى، كما في قوله :

فمن حوى العلم ثم أودعه ∴ بجهله غير أهله ظلمه

وكان كالمبتني البناء إذا ∴ تم له ما أراده هدمه

6- عند عقد موازنة بلاغية بين معاني تشبيهات الشافعي و معاني تشبيهات الشعراء الآخرين الذين صاغوا معان قريبة من معانيه_ مثل ابن الرومي والمتنبي وأبي تمام وأبي أمامة وشوقي _غالبًا ما تترجح كفة أدب الشافعي وصوره، وهذا ما أكدت عليه هذه الدراسة عبر ما ورد فيها0

7- تأثر الشافعي في تشبيهاته بالبيئات العربية المختلفة التي زارها أثناء رحلة حياته فشبه بالراهب تأثرًا بالبيئة المصرية،وشبه بنهر الفرات تأثرًا بالبيئة العراقية،وشبه بالأرجوان تأثرًا بالفينيقيين،مما أشار إلى كثرة أسفاره ورحلاته0

8- يتميز التشبيه عند الشافعي بكثرة التفصيلات واستنفاذ قوة الاستقصاء،كما في قوله:

كحامل لثياب الناس يغسلها ∴ وثوبه غارق في الرجس والنجس

9- حسن استغلال الشافعي للطاقة الجمالية والدلالية للتشبيه في تدعيم فضائل الأخلاق من حلم وصبر،و طلب للعلم،وكيفية تثبيته في النفس البشرية،وتجميل صورة الشهيد،و تحديد أهداف الغربة الإيجابية،و المطالبة بغنى النفس وعزتها0 كما ثبت حسن استغلاله للطاقة الجمالية والدلالية للتشبيه في نبذ سيئ الأخلاق كالرياء والغيبة ،والجهل والسفه،وترقب عيوب وأخطاء الآخرين0

10-تنوع أسلوب التشبيه عنده حسب مقتضيات المعاني ،فاستعمل التشبيه المفرد في موضعه،الذي لا يحتاج إلى وقفة تأملية طويلة،بل يساق فيه المعنى خطابًا سريعًا للعقل البشري ،كما استعمل التشبيه المركب في موضعه الذي يحتاج إلى التأمل والتفكير 0

وأخيرًا بعد هذه الرحلة الممتعة في ديوان الشافعي ،أعترف أنهـا كانـت تنقصني ،وأنني خرجت منها غير ما دخلت أدبيًا وبلاغيًا وأخلاقيًـا ،وأتمنـى أن يأتي يوم يتقرر فيه دراسة هذا الديوان على طلابنا وأبنائنا،تأكيدًا لعـادة الأمـراء والملوك في تأديب أبنائهم بمثل هذا الشعر الراقي ،ووضع مثلـه تحـت المجهـر الدراسي للاستفادة منه0

المراجع والمصادر

1-آداب الشافعي:محمد عبدالرحمن الرازي-مكتبة الخانجي- القاهرة-1953م0

2- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر-د/عبد القادر القط-مكتبة الشباب-1978م0

3-أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني-ت/ه ريتر-دار المسيرة-بيروت-ط ثالثة 1403هـ0

4-الأعلام :خير الدين الزركلي-دار العلم للملايين-ط سادسة-1984م0

5-الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني-ت/محمد عبد المنعم خفاجي-دار الكتاب اللبناني- بيروت -ط سادسة- 1985م1405هـ0

6- البديع دراسة في البنية والدلالة-د/عزة جدوع-مكتبة الرشد- ط أولى 1429هـ-2008م0

7- البلاغة فنونها وأفنانها:علم البيان والبديع-د/ فضل حسن- دار الفرقان- عمان- ط أولى- 1987م- 1407هـ0

8-التشبيه البليغ: د/عبد العظيم المطعني-دار الأنصار- ط أولى- 1980م0

9-التعبير البياني: د/ شفيع السيد-دار الفكر العربي- ط ثانية-1982م 1402هـ0

10- تهذيب الأسماء واللغات:أبو زكريا بن شرف النووي-دارالكتب العلمية- بيروت

11-توالي التأسيس بمعالي بن إدريس في مناقب الشافعي: ابن حجر العسقلاني- المطبعة المنيرية- 1982م0

12-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: الحافظ أبو نعيم الأصبهاني- دار الكتاب العربي-بيروت0

13- خزانة الأدب وغاية الأرب : ابن حجة الحموي-ت/ عصام شعيتو- دارالهلال- بيروت-1987م0
14- ديوان ابن الرومي-ت/ د حسين نصار- دار الكتب المصرية- القاهرة- 1973م0
15- ديوان أبي تمام- ت/محمد عبده عزام- دار المعارف- ط رابعة- القاهرة0
16-ديوان أبي الحسن التهامي- ت/علي نجيب عطوي- دار الهلال- 1986م0
17- ديوان أبي نواس – ت/أحمد عبد المجيد غزالي – دار الكتاب العربي – بيروت-1993م0
18-ديوان زهير بن أبي سلمى- دار صادر- بيروت- بدون0
19- ديوان الشافعي :محمد بن إدريس بن العباس-شرح / محمد عبد الرحيم- إشراف مكتب البحوث والدراسات- دار الفكر – بيروت- 1425هـ- 2005م0
20- ديوان المتنبي- دار المعرفة – بيروت- بدون0
21-سنن ابن ماجه-ت/محمد فؤاد عبد الباقي-دار إحياء التراث العربي- بيروت0
22- سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي- ت/نخبة من الأساتذة- مؤسسة الرسالة- ط ثانية- 1405هـ- 1985م0
23- شرح ديوان الحماسة: أبو علي المرزوقي- نشره /أحمد أمين و عبد السلام هارون-ط ثانية- القاهرة-1967م-1387هـ- مطبعة لجنة التأليف والترجمة0
24- شروح التلخيص- دار الكتب العلمية- بيروت- 1996م0

25- الشوقيات :أحمد شوقي- تعليق د/ يحي شامي- دار الفكر العربي- بيروت-ط أولى- 1996م0

26- صحيح البخاري :للإمام أبي عبد الله محمدبن إسماعيل الجعفي- ت/ مصطفى ديب البغا- اليمامة- دار ابن كثير- بيروت- 1407هـ- 1987م0

27-صحيح مسلم : للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري- ت/ محمد فؤاد عبد الباقي-دار إحياء التراث العربي- بيروت0

28-علم البيان دراسة تحليلية :د/بسيوني عبد الفتاح فيود- مؤسسة المختار- دار المعالم الثقافية الإحساء- ط ثانية- 1425هـ-2004م0

29-علوم البلاغة : أحمد مصطفى المراغي- المكتبة العصرية- بيروت- 1429هـ-2008م0

30-لسان العرب :ابن منظور الأفريقي- دار صادر- بيروت-ط رابعة- 2005م0

31- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية مصر- ط رابعة- 1426هـ-2005م0

32-المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني- مكتبة الأنجلو- القاهرة0

33- مقامات الحريري -ت / يوسف بقاعي- دار الكتب اللبنانية -ط أولى- بيروت0

34- مقاييس اللغة:أحمد بن فارس-ت/عبدالسلام هارون-نشراتحاد الكتاب العرب- ط1423هـ / 2002م .

35-مناقب الشافعي:للبيهقي- ت/أحمد صقر - القاهرة - مطبعة الحلبي- 1391هـ .